محمود درويش

في وصف حالتنا

مقالات مختارة ١٩٧٥ـ ١٩٨٥



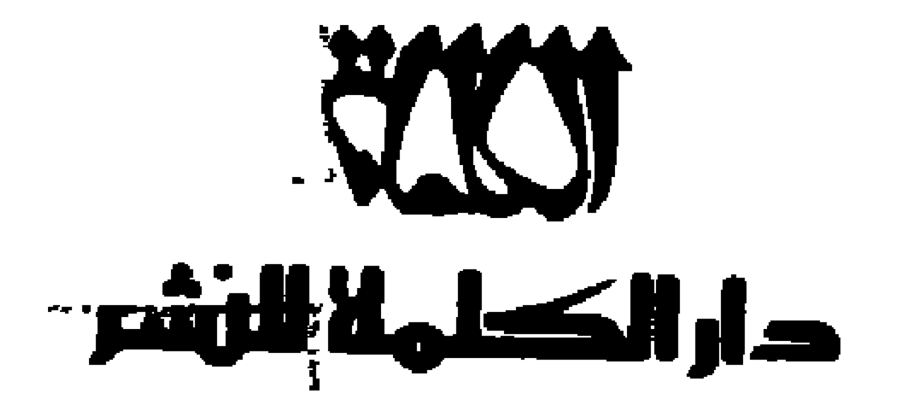


مقالات مختارة ١٩٧٥ـ١٩٨٥

محمود درويش

في وصف حالتنا

مقالات مختارة ١٩٧٥ـ١٩٨٥



صمم الغلاف: كريم الحاج

صورة الغلاف: ماهر العطار

الكلمة

دار الكلمة للنشر

شارع ليون - بناية سلام. الحمراء

بيروت. لبنان

ص. ب ١٣/٥٢٨٨

تلفون: ٨٠٣٧٤٠

الطبعة الأولى ١٩٨٧

ALKALIMA PUBLICATIONS (CYPRUS) Ltd Tel 311753 Telex 5223 CY Rawafid-P O Box. 7047 NICOSIA
DAR ALKALIMA (LEBANON) Tel 803740- Telex 20639 LE Delta - P O Box 13/5288 BEIRUT

مدخل

ثمَّتَ تَبِعَاتٌ في جمع الكتابة الآنيَّة، بجوهرِ خاصيَّتِها الدَّالة على برهةٍ مَا من أحداث الواقع؛ برهةٍ حميمةٍ في الخطاب المتَّجه إلى ماضيهِ أبداً، لأنَّه يتذكَّرُ ويُذَكِّر. لكننا، في جَمْعِ مقالات هذا الكتاب، بما تحمله من تَبِعَةِ الآنيِّ، لسنا في حاجة إلى تبريرٍ توفيقيٍّ يحملُنا إلى تقديمها، لسببٍ مُوْجَزٍ وهو أن بُرهتها تملك خاصيَّةَ التعميم في التراجيديا الفلسطينية.

إنَّ ما يُقالُ، هنا، لا يُقالُ لمرَّةٍ واحدة. والواقعُ المُقْتَنَصُ في الكلام، وسط السطور وحولها، متدحرجٌ كالكُرةِ من النَّصّ إلى المشيئة، ومن المشيئةِ إلى النّص، بالتواريخ اليومية المتتابعة، وغير المتتابعة، في الأسىٰ الأشمل من حصارٍ إلى حصار، ومن نفيٍ إلى نفي؛

إن ما يُقال، هنا، هو الأنينُ الواحدُ في هبوب الفجيعةِ المتعدِّدَة.

لقد آثرنا نشر هذه المضمومةِ المختارة من المقالات لأن الواقع يؤكِّدها بفضيحته المتكرّرة، يوماً بعد يوم؛ وبإصراره العربي، تحديداً، على أن يكون ـ في مستقبله المنظور ـ صورةً لهذه الكتابة المُنْجَزَة عن ماضيه، كأنّما تتوارثُ الخيبةُ الخيبةَ، والحكامُ الحكامَ، والشهيدُ الشهيدَ، والروحُ التي لا تنكسر ـ في العمق الفلسطيني ـ اختَها التي لا تنكسر؛

إنها كتابةٌ تتأكّدُ بثوابِ المستقبلِ الأبعدِ على أَلَمِها.

أيحتاج الألمُ إلى تعريف؟ ذلك ما تقدّمه هذه المقالات التي لا تُعَرِّفُ الألَمَ إلاّ بوصفِهِ مَدْخلاً.

«دار الكلمة»

الإرهَاب الأسود

لا وقت، لا وقت. المشنقة تسبق السؤال، والرصاصة تبحث عن صدر أو ظهر. ونادراً ما يرى القتيل وجه قاتله، كأنه يخرج منه على قوس الظلال ويختفي فيه. أو كأن القتل انتحار، رياح تهب ورمل. وغالباً ما تدرك أن الأشجار العربية، المتعانقة أو المتفرقة، جنازة ثابتة وصامته. ودائماً نعرف أن اضلاعنا مشانق. ونحمد اليوم التالي على معجزة التكرار. ومن الهواء يأتي زوار لا نعرفهم. يأخذوننا من ذاتنا، وينصرفون، فندافع عن تهمة لم يوجهها إلينا أحد، ونتعذب في سجن لا جدران له. ومن الشوارع تنفجر أسرار لا تعنينا وتتكسر قامات لا نودعها ونادراً ما نحزن. وحين نبحث في السجون عن أسمائنا لا نجد لها أثراً ولا شبهاً. وعندما نتحرى الجدران عن دمنا لا نجد غير هتافات جميلة تعدنا بصباح حتمي، يكتبها زوار الليل نيابة عن الشهداء. وتتاح لنا أحياناً فرص لمحاورة الجلادين، فنجدهم أذكياء وطيبين، يعرفون لغتنا وأحلامنا وينحتون لنا المستقبل في الصخر. وكلما خاطبناهم بلغة عاطفية سبقونا إلى البكاء. وكلما عاتبناهم على ظلم لحق بالابرياء أخذونا إلى الشرفة لنرى صفوف الشهداء تبايعهم، فنعتذر أو نكاد، ونفتش عن القاتل في مكان آخر، وننبش جلودنا لنلمس دمه فينزلق. وتبقى التهمة مسألة نفسية وترجأ الأسئلة إلى زمن آخر. الكل يعرف الخطر الذي يتربص بالرجاء، والكل يتفق على أن تحول الشمس إلى احتمال يومي صار موضوعاً قابلاً للخلاف. فأين الخطأ وأين الصواب؟ والجلادون ظرفاء

يحبون الأغاني وأنيقون بلا حدود. وحين يمرض الواحد منهم يؤتى إليه بجماهير حزينة لتعوده وتودعه، فيسأل مترجمه الشعبي عن اللغط فيجيب: جاء الشعب مودعاً، فيتساءل ببراءة صادقة: إلى أين يسافر الشعب؟!. هل يستطيع وزير واحد أن يبلغ الحاكم أن الشعب لا يسافر؟ لماذا تسبق المشنقة السؤال إذن؟ ولماذا يبنون لنا مزيداً من السجون إذا كنا جميعاً طلقاء؟. تنزل الأسئلة إلى الهمس فيسمعها العصفور ويشي. ولكن الوجدان يشتاق إلى محاكمة يتلو فيها المدعي العام لائحة الاتهام لننجو من هذا الكابوس، ولنستمع إلى محامي دفاع واحد بلغته القانونية القديمة التي كدنا ننساها. وكم نشتاق إلى مظاهرة واحدة، في عاصمة واحدة، نحتج فيها على خيانة واحدة، أو نحيي فيها بطولة مضادة! وكم نحنُّ إلى افتتاحية ساخنة تعيد إلينا ذكريات خلاف ما، وقع يوماً ما، بين حاكم ومحكوم. هل انتهت الحرب الطويلة مع العدو، الذي ما زال يحتل الأوطان، لينتهي الفارق بين الليل والنهار؟. وهل يكفي أن يصدر الحاكم بياناً جباناً عن آخر الحروب، ليحل السلام بين المتخم والمحروم وبين السجين والسجان وبين الظالم والمظلوم؟ هل كانت سعادتنا بسيطة وقريبة إلى هذا الحد ولم نعرف؟ وهل نندم على عمر ضاع أمام شعار لم يتحقق، لا لشيء إلا لأن أحد الأقزام قفز على الشجرة وطال في الظلال! وإذا كان عمرنا قائماً على هذا الوهم فمن أين الحاكم جاء؟ لماذا لا يسقط الساقط وحده؟. لا وقت للسؤال، ولا وقت للجواب، لأن المشنقة جاهزة، ولأن الحوار إضاعة لوقت الحاكم المشغول.. بماذا؟.. كان شعار «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» كابحاً للتعبير عن الحاجة إلى الخبز والحرية، لأن قيدنا كان شرطاً لحرية الوطن. فأي صوت يكبح الآن وأية معركة تعلن؟ دائماً كانت المشنقة صدى، وتتحول اليوم إلى افتتاح. لقد أعلن الحاكم الحرب علينا من الوريد إلى الوريد. وهو الذي يبشر بانهيار السلطة ويعد المشانق للاحتمالات. إنه زمن الإرهاب الأسود. إرهاب يميني ولو وقف على يسار الضحية. إرهاب أصيل، عروبي، نابع من ذواتنا، غير مستورد. مستتر خلف حجاب رغم أنه ذكر. ويصلي خمس مرات في اليوم، إذا شئتم، تقي، أصولي، يقطع اليد الممتدة إلى الرغيف والحرف بحد

السيف، وفق الشريعة. وأحيانا متمدن: يستخدم أرقى أدوات التعذيب البشري ومراقبة الأحلام على الشاطىء. وسري: ليجعلك القاتل والقتيل في جسد واحد. وعلني: كمنشآت النفط التي تجتاح القيم، وكصحف هذه الأيام، وكشاشة التلفزيون التي لا يغادرها وجه الحاكم الذي ألغى الفكاهة. وجاهل: يكره الكتابة والصحافة فيشتريها ويرميها في المرحاض. ومثقف: يعلن أن الحروب الوطنية والأهلية هامشية، لا تدخل في الجوهر. وشاعر: يضع السحر والشعوذة بديلاً للمعرفة العلمية، ويحدد التناقض الرئيسي بين حنجرة الشاعر وخصر الراقصة. وديموقراطي: يعدد اسماءه ويحدد جوهره، ثم يوحد صورته حين يعم الاجتهاد العيون. وفاشي: لا يتقن المهنة فلا يبني ولا يحارب إلا الفقراء. واشتراكي: ولكن طبيعة الإنسان التي يتنازعها الخير والشر هي العائق، ولأن التناقض الرئيسي بين الإنسان والله. إنه الإرهاب الأسود. إنه الإرهاب الأسود الذي يخاف الشفق الممكن في عروق الأمة، الإرهاب الجارف الذي يعرف من هم اعداؤه من فرط ما يعرف نفسه وطريقة استيلائه على السلطة. إنه الإرهاب الأسود الذي استسلم للغزاة بلا ثمن فخاف سؤال الشارع فجعل المشنقة تسبق السؤال. إنه الإرهاب الأسود الذي يدعونا إلى المعركة ويخذلنا في أوج المعركة لأنه لا يعادي سوانا. طالبناه بأن يعامل «العبيد» كما يعامل «طائفة اليهود»، على الأقل، فجن واتهمنا بالخلاعة، لأن لليهود أميركا تحميهم وخطوط دفاع مشتركة. إنه الإرهاب الأسود الذي يستبق العاصفة التي تتأهب للانفجار فينا، ويعرف سر فلسطين فيجعلها سراً أو عيباً من عيوب القرية. إنه إرهاب السلطة، بميوعة صفاتها الطبقية، وبوضوح تجلياتها في تسليم الأرض، وفي تحريم النبض، وفي تعميم القبض. لها حرس، وعسس، وأدباء وشعراء محمولون على الأوراق وعلى ناقلات الجنود، إنه الارهاب الأسود الذي يعي أزمته فيسبق السؤال بالمشنقة ويحول الكتاب إلى كلاب، ويحول القمع إلى إرهاب، فلنعلن إننا في زمن الإرهاب، في زمن الإرهاب الأسود.

سَيُحرَق هذا المسْرح

لا زرقاء اليمامة ولا الأنبياء الغاضبون هم الذين ينذرون بالانهيارات القادمة . إن ما ينهار ينهار. المسرح يعج بالممثلين العاجزين عن مواصلة النص ، والنص دموي ، والجمهور المقيد بالمقاعد يحاول أن يحرر أيديه ليحرق المسرح ، ويستولي على دوره التاريخي . البديل يتكون تحت الرمل والقهر. والرؤيا ملك الجميع ، لأن الانهيارات ساطعة .

عرق كثير، وخيبات . دم غزير وانفجارات . أرض تصغر وجراح تكبر. أوطان ذات قابلية لإعادة النظر. وأميركا تدخن الغليون ورئيسها يبتسم . الشاي في موعده المحدد ولا قوت للوطن . العبيد يتظاهرون بالانحناء . وكان للرغيف شكل فلسطين ووجه الفلاح . ذكريات وانهيارات . صمت يخبيء براكين . ويفاجأ الممثلون العاجزون بأن المسرحية تقترب من النهاية ، والغزاة يجلسون على حافة المسرح . تنتشر الفضيحة . تعجز البلاغة عن التبرير. يقترب الممثلون قليلاً من الأمة : في هذه اللحظة الحاسمة من التاريخ عجزنا عن تحرير الأرض ، ونجحنا في حماية الحكم . لا أحد يصفق . يقال وعد آخر: ما زال الحل في يد أميركا ، ولكن أميركا مشغولة بانتخابات الرئاسة الجديدة .

وحزيران يتجدد ويتمدد ، يثأر من تشرين السريع . تبنى سجون جديدة . تخاض حروب أخرى بعيداً عن الأوطان المحتلة . فيواصل الغزاة السباحة

في مياه جلودنا. يزداد انتشار الكوكاكولا والأدب المنحط. تبتكر وسائل جديدة للتعذيب العربي. يمنع الطلبة من تقاليد الهتاف للخبز والحرية. يرتفع الحجاب على وجوه النساء. فيعلق بعض الأدباء: إن الحجاب أكثر إثارة. يزداد الإقبال على قارئات الفناجين. وتعقد الوزارات جلسات طارئة لتحضير الأرواح. يعاد الإيمان إلى الأمة بقرار جمهوري. وتعم الخرافة.

ولكن ما ينهار سينهار.

ماذا لم يقدم عرب أميركا إلى أميركا؟ حتى التصوف قدموه مقابل مديح زائل. تصير شعارات الجيل نكتة ممجوجة. التضامن، الوحدة، الاشتراكية، العروبة، العدالة الاجتماعية، فلسطين، الثورة، ذكريات.. ذكريات. الإسرائيليون أو العبرانيون أو سكان فلسطين الجدد، ولا يقال الصهيونيون، يعتنون ببيوتهم الجديدة في المستعمرات الجديدة على أرض عربية جديدة. يأتون إلى الأسواق العربية ليشتروا الديكور والتحف والهدايا: السيوف العربية المرصعة بماء الذهب أو بماء الفضة أو بماء الوجه. ويتعلم الباعة كلمات عبرية تنفعهم في وقت الانفراج. أليس هذا هو السلام؟ وفي الأرض متسع للجميع. يستولون على منابع المياه والاحتمالات، ويقتربون من منابع النفط. وفي وسع الحجاج العرب أن يزوروا القدس. أليس هذا هو السلام؟. فالذين يستطيعون أن يفرضوا الحرب التي يريدون، يستطيعون أن يفرضوا السلام الذي يريدون.

ولكن ما ينهار سينهار.

يخرج سكان الأرض المحتلة إلى الشوارع. يبحثون عن سلاحهم الوحيد: حجارة وفخار وأغصان زنزلخت. يشتبكون مع الدبابات وينشدون لاعياد قديمة. تعلن حالة الطوارىء في الإذاعات العربية. الصمود الصمود. يتدخل الشعراء ليحسموا المسألة لمصلحة القصيدة. وتشن حرب أخرى على مواقع الثورة. النشاز الفلسطيني يتصاعد، فيتصاعد الحرص العربي الرسمي على تأمين شروط التسوية، بضرب الشروط الفلسطينية والأجساد الفلسطينية. يتدخل الرئيس الأميركي مرة أخرى ليترجم إيمانه بالله

إلى عدل . يطلب تعميق قبول قرار ٢٤٢ . نقول : عدل . يعدل تصريحاته ، ويعدل عن إيمانه . نلتمس قرارات جديدة . نذهب إلى مجلس الأمن . نأخذ فيتو أميركيا جديداً . نذهب إلى الجمعية العامة . نحصل على قرار جديد . يكبر ملف العدالة والاعتراف بالحقوق . نأتي إلى ساحة الصراع الأصلية . ميزان القوى مختل . العدالة من دون قوة . والقرارات في سلة المهملات .

ولكن ما ينهار سينهار .

ميدان المعركة لا يستطيع أن يظل بعيداً عن مناخ البيت . التفكك ، التمزق ، الطائفية ، الاقليمية ، الفساد ، الرشوة ، انبعاث القديم ، الردة ، الاستهلاك . تخلى الممثلون عن سلاحهم وذهبوا إلى العراء . ولكنهم يحتفظون بسلاح استراتيجي ثقيل : وعد جميل قد يقدمه رئيس أميركي مؤمن . الأمل محاصر من الوريد إلى الوريد . الثروة ضد الثورة . الفقراء يزدادون فقراً . الانعزالية القادمة من جنوب المعركة الجنوبية تترسخ في جنوب لبنان . لم تعد الصهيونية نموذجاً يحارب ، بل مثالاً يحتذى . ندخل في الحروب والمذابح . يتقزز المثقفون من تخلف الأمة . الشر من طبيعة الإنسان . وماذا يستطيع النظام أن يفعل؟ الكأس والمرأة هما الحقيقتان الوحيدتان والباقي باطل الأباطيل . لا أحد يسمي الأزمة . لا أحد يقول إن الطبقة أياها توغلت في طبيعتها التاريخية . . خانت . يدرك الممثلون أن أميركا لا تنقذ الأوطان . ولكنها لن تتخلى عن الأخوان تخذلهم مرة أخرى . يتقدم ضابط وسيم من الإذاعة . يتسلق حائط المبكى والانقلابات ـ فلسطين . فتلك مقدمة حتمية للبلاغ رقم ١ . يعيد العلاقة العربية ـ السوفياتية إلى خطها التاكتيكي . يستبدل السجناء . ينذر أميركا ويعطيها مهلة للضغط على إسرائيل . ينتظر معركة انتخابات الرئاسة الأميركية ثم انتخابات الكنيست الإسرائيلي . لا شيء ، لا شيء . يغضب . يسحب سفيره من واشنطن ويبقى الملحق التجاري لتصريف الأعمال . لا يضحك الجمهور ولا يبكي . يختلف وزيران إسرائيليان على سيدة أو رشوة . يكتشف الباحثون مصادر ضعف الكيان الصهيوني من الداخل . يعلن عمال مطار اللد الاضراب ساعتين عن العمل . يتحمس الباحثون في

الشؤون الإسرائيلية ويضعون خطة لتعميق الإنهيار الصهيوني. تأتي انتخابات جديدة. ينتصر المتطرفون: لا انسحاب، ولا أرض، ولا سلام، ولا حقوق. لا تغضب كثيراً، فتلك مسألة عابرة، ننتظر. ننتظر. ولا تتمكن المحامية الإسرائيلية التقدمية من تقديم البديل.

المسرح يعج بالممثلين العاجزين عن مواصلة النص، والنص دموي. والجمهور المقيد بالمقاعد يحرر أيديه. يحرق المسرح. يستولي على دوره التاريخي. ويجد البديل. لأن ما ينهار ينهار.

أيها النسيان، إنك تليق بكل الأسماء، ولكنك لن تكون تل الزعتر

يفلت منا تل الزعتر. وهذه اللغة للتفاصيل. كيف نحمي النص من الانفجار. وأسئلة أخرى. ويتكرر سوء التفاهم الذي لا ينتهي بين البطولة وعناصرها. البطل هو آخر من يعرف أنه بطل. وتل الزعتر لا يعرف تل الزعتر. ولا نعرف، في هذا الخضم، كيف نسمي. سنجتهد كالمعتاد، وأسئلة أخرى. ولكن الذي أتيح له أن يحدث الحدث لا يستطيع أن يشهد حدود دمه. والذين ساروا في الحنين إلى ما هو آخر لن يروا في صفوف الكلمات المنهالة عليهم إلا مجموعات غريبة من الحشرات. بعضهم ذهب إلى الصمت الأخير، وبعضهم يذهب إلى الحياة بشروط محكمة. ويفلت منا تل الزعتر. وليس كل من جاء من هناك كان هناك. وسنقول الآن: تل الزعتر تراكمات بساطة، وثقافة علاقة بالمعجزة في أشد مقوماتها الفة. تل الزعتر معجزة الماء. اختيار الذين يختارون والذين لا يختارون. استدراج البشر إلى سر التاريخ، وترويض الدهشة. فيصير كل شيء عظيم في متناول اليد. تل الزعتر شمول لا يكبر حبة العدس، وقارة من الفوارق بين الانفجار والانتحار. تل الزعتر أسماء كثيرة لا اسم لها. حالة ترهق حاملها وقاتلها. من يضبط هذه الصيغة بعد الآن، وأسئلة أخرى. وهو لذلك يفلت منا ومن ذاته. تل الزعتر أكبر من تل الزعتر.

.. وسنقول كلاماً كثيراً. سيقال كل شيء ولا شيء. وستمر الأيام

الأخرى على هذه المدينة ـ بيروت ـ التي لا يقيم فيها إلا الذين ماتوا والذين سيموتون بشظية طائشة أو باقتحام، ويعقبهم فرح. ومع ذلك، يظل حزنها من الخارج أكبر. لا أدري إلى أين تقودني هذه الملاحظة، ولكنني ركبت كَيس طحين ومشيت على الماء الليلي من قبرص إلى صيدا، لاقترب من انفجارات اللحظة التي حبلت بها مئات السنين من تاريخ أمة. على سطح السفينة شباب غادروا الكتب والسفر في طريقهم إلى بيروت ليدافعوا عن الحلم. كنت في اسبانيا قبل أيام، ولكن اسبانيا لم تكن اسبانيا إلا على ظهر هذه السفينة. إن الذين يحلمون يشبهون بعضهم البعض ولهم وطن واحد، وفي بيروت أيام مشابهة: بالأمس تركيب المولدات والمحركات الكهربائية، وإقامة الخطوط الحديدية في الصحراء/ بالأمس المحاضرة العلمية عن أصل الإنسان/ أما اليوم فالصراع/ بالأمس الايمان بالقيمة المطلقة، للاغريقية/ وإنسدال الستار على موت البطل/ بالأمس الصلاة للشمس في الغروب/ أما اليوم فالصراع. / غداً إعادة كشف الحب الرومانسي/ وتصوير الغربان وكل البهجة/ في ظل «الحرية» السائد/ غدا ساعة قائد العرض ولاعب الموسيقى/ غدا للفتية الشعراء يتفجرون كالقنابل/ والتمشي على حافة البحيرة/ غدا سباق الدراجات/ أما اليوم فالصراع. (أودن).

اليوم تل الزعتر. وتل الزعتر يستجمع بؤسه ويقف على قمة تفاصيله التي يخفيها، فيحفظه الذين يعرفون والذين لا يعرفون والذين لا يريدون أن يعرفوا. اليوم يسمون شرق المتوسط تل الزعتر. في نيويورك ولندن وباريس وروما: سقط. لم يسقط. سيسقط. لن يسقط. اجتهادات صحافة، وأعداء، وأحلام جيل آخر. لم يعد ذلك مهماً. العالم كله تحول إلى انعكاس لوهج الزعتر. تل الزعتر يفلت من الاحتمالات. ينزلق من الصواب والخطأ. إنه يحول الكرة الأرضية إلى مخيم. تل الزعتر يستولي على الوقت.

لا رحمة. لا رحمة. قال لي صديق مشغول بملاحظة الظلم الأوروبي: تعبت منهم هؤلاء الذين لا يكفون عن سؤالي كيف تهجي اسمك. وتفاخر: هؤلاء لا يسألونك كيف تهجي تل الزعتر! اخرس! فليس

ذلك دليلاً على علاقة المتناقضات التي تجمل، فليس لأحد شأن في الألم الذي يصيب إنساناً تشد ساقه اليمنى سيارة في اتجاه، وتشد ساقه اليسرى سيارة في اتجاه آخر. لا. ذلك عادي.. عادي لأنه من تل الزعتر. لا. لا. هل فكرت هذه الضحية بأن ما يرفعها إلى هذا الوجع يرفعها إلى الشهرة؟ هل تعيدها إلى الحياة أو إلى فلسطين شفقة جنتلمان انجليزي؟ أيها العالم، إني أرفضك. وماذا تستطيعون أن تقدموا لنا! سؤال يواجهه الفلسطيني على شاطىء الباسفيك من غاضب على القهر الاجتماعي. وأنت تجيب وتحاول أن تلم في صدرك أشلاء طفلة من تل الزعتر. وفي مجلس الأمن يرفع المندوب الأميركي يده ليقول في أدب: لا ـ لحق الفلسطينيين في عودة أو وطن.. أو في أي شيء خارج الموت. ولكن تل الزعتر يقاوم. وفي كندا يتلذذ رجال الأمن والجمارك بتفتيش مسام جلودنا، لأنهم يخافون على دورة الأولمبيك. وتنهمر الأخبار: سقط. لم يسقط. سيسقط. لن يسقط. تل الزعتر يقاوم. وفي فانكوفر تقول الصحافة إن الفيلم الفلسطيني هو أجمل أفلام العالم في هذا المؤتمر. وفي اليوم التالي كانت سيدة فلسطينية تسأل رجل الأمن الكندي: هل تفتشون الجميع كما تفعلون بنا؟ قال في حسم: لا. فلماذا تخبره إذن أنهم ذبحوا أباها وأمها وأختها دفعة واحدة؟. إن الذين يرفضون حقنا في أن نكون عاديين هم الذيم يستدرجون نومهم بأقراص تحولهم إلى حراس. إن مبتكرات كثيرة قد أنجزت من أجل مراقبة الطريقة التي يتنفس بها الطفل الفلسطيني. إن علماً بأكمله قد جند لترويض هذا الدم. كانت أدوات الحجب أكبر من أن تحجب. وفي خمس دقائق زعترية توقف العالم عن الرقص والاهمال. وتحولت أنظاره إلى هذه المباراة.. في خمس دقائق. قادم من هناك. ذاهب إلى هناك. نحب أو نمشي. سيموتون. لن يموتوا. لا يريدون لهذه الدورة أن تنتهي لأن الضحية تلعب باتقان. وما زالت الأفلام الأميركية تجيد صناعة الإبادة السهلة. وفي جنوب شرق آسيا، وحين صار دمهم شريكاً في اللعبة، أرادوا لها أن تتوقف، وأرادوا للكاميرا أن تلجم ذكاءها. أما في تل الزعتر، فقد طالت أكثر مما وعدوهم، والدم ليس دمهم. فلتستمر رياضة الموت. تصفيق تصفيق.. وكتابة.

كل السفن بطيئة . ولكن هذه السفينة السائرة على الماء الليلي من قبرص لا تجد صيدا . ولا ترى إلا أضواء القراصنة القادمين من ميناء حيفا . يحتلون البحر أيضاً . حوالي مائة طالب غادروا سنواتهم الجامعية الأخيرة ليتموا إلى الحلم . منذ فترة طويلة لم نسمع هذه الأغاني . والسفينة لا تصل . يدفعونها بالهتاف والأناشيد . ولم يتدربوا على حمل السلاح . وعلى طريق تل الزعتر تقف المرأة إياها ذات السواد . تختار أجمل الأطفال وتذبح تذبح وتنتشي . تنتشي وتعود إلى البيت لتنام . وعلى طريق آخر يقف العملاق العاجز ويختار العذراء . يضاجعها بسكين المطبخ الكبيرة ، في هدوء في هدوء . المشاهدون لا يتحركون . الصليب الأحمر . التضامن العربي . الله . الوطن . العائلة . النساء الأنيقات . ثم يمسح السكين بالبنطلون الأبيض . يزدان بعلامات فحولة السكين . العذراء ترشح دماً . العملاق العاجز يرتاح .

كل السفن بطيئة . ولكن هذه السفينة أبطأ . كانوا مائة . سيعود منهم عشرون .

تل الزعتر . أسماء كثيرة لا اسم لها . لا أحد يحب كالآخر . لا أحد يموت كالآخر . ثلاثة آلاف قتيل ليسوا رقماً . سيرة البشرية تقتحم طريقة الفهم الشائعة ، تنقض على التاريخ : إنك تكذب . لا يسمعهم التاريخ . يعطيهم رقماً ولا يجمع الأشلاء . لا يرى كيف التقطوا دماءهم ، قطرة قطرة ، من بين عشرات السنين ومساحات الرمل . يضعهم في جملة واحدة : ثلاثة آلاف قتيل ماتوا في معركة . ولكن . . لا أحد يموت كالآخر . والكتابة ، كالتاريخ ، تكذب . نحن هنا نرتكب أكثر من مخالفة . نروي عنهم ونخفي بعض ما قالوا وما يقولون لننقذ اللحظة السياسية العابرة من الحرج . لا وصية لهم ولا قبر . رسونا على دمهم وكان الأرض . وفي أوج الكتابة كانوا يموتون بدلاً منا . كانوا هم الذين يكتبون . وظلت الكتابة تكذب . وفي ساعات الدم الكبرى . . في ساعاتهم نتساءل عن جدوى الكتابة ، ونمضي في السؤال لنسأل عن جدوى الحياة ذاتها . نعم ، سنشك في كل شيء ، سنشك في الحياة من فرط ما ماتوا . وسنسأل : إلى متى نرسم المواعيد ونسقط؟ وسيعيدون أسئلتنا إلى التوازن . سيعيدون لنا الحياة ذاتها . ستؤمن ونتابعهم . هؤلاء

الذين لا جدران تكفي لصورهم، ولا اسم لأسمائهم، ولا حبر لا حبر يكفي لتقليد دمهم. إنهم مرميون على الأرصفة والساحات والبذور، مرميون على الشمس وفي الظلال، مرميون في الحنان والظهيرة، مرميون في الذاكرة والنسيان. وما علينا إلا أن نشهر الأقلام ونغمسها في الايقاع الدموي الجاهز وفي الصور المجانية، فيصير الكذاب فينا مخلصاً والركيك متيناً ويزدهر الأدب الفلسطيني على دماء تل الزعتر. وتنهال باقات الورد ويمنع النقد، لأننا نكتب عن تل الزعتر. أن بطولتهم شيء، والكلام عن هذه البطولة شيء آخر. فلينصرف الذين يقيمون من أشلائهم متاريس إلى هواياتهم الحقيقية. وليتحدث تل الزعتر عن تل الزعتر. لهم، وحدهم، حق الكلام. هذا الكلام لهم. وسنجد ي كلامهم كتابة تنفي الكتابة. سنرى في هذه الصفحات العفوية الخارجة من المذبحة والبطولة سقوط الكتابة وازدهار لكتابة. لنتعلم أبجدية الصدق والفن من هذه البساطة. إن لغتهم هي التي تغير. أشعر وأنا خارج من هذا النص أنني قادم لتوي إلى الحياة. أي كاتب يستطيع العودة إلى تقاليده بعد قراءة هذا النص الدموي، ولا يكون كاذباً أو قاتلاً. سأتوقف عن الكتابة. سأتوقف عن الكتابة إلى أن يهدأ دمي وأجد كتابة أخرى.

إن تل الزعتر أخطر حادث بطولة في تاريخ العرب. وأسأل نفسي كثيراً: هل يكون الوطن وحشياً إلى هذا الحد؟ نعم، وقبيح أيضاً ومقدس حين يكون رئة الحياة. لم يقتل وطن أبناءه كما يفعل الوطن الفلسطيني، ولم يبدع شغيلة وطناً كهذا الحلم الذي يغير عصراً. وحين يكون الحصار هو الحصار الأخير. وحين يكون الخندق هو الخندق الأخير تصبح مساحة الصفيح الصغيرة هي الكون، ويكون سقوط هذه البقعة سقوط الكرة الأرضية في فراغ لا ينتهي. من علمهم ذلك؟ القيد والثورة. ومن أيضاً؟ وجدوا أنفسهم يموتون فماتوا تماماً كما يجد المرء نفسه حياً فيحيا. وكانوا أكثر حرية من الحرية ذاتها حين انصهروا في الموت وهم يعرفون أن موتهم ليس شعراً كما لم تكن الحياة شعراً. لا جمال لهذا الموت.. لا جمال لا جمال إلا هم. كانوا يدافعون عن كوب الماء وعن قابلية الجرح للشفاء، ولا يهمنا أن نعرف إن كانوا يعرفون أنهم كانوا يدافعون عن القارة العربية المهددة بالتخلي

عن أحلامها . لا شروط للبطولة إلا شروطها ذاتها حين ترمينا الحياة إلى لحظة لا نستطيع فيها إلا أن نبدع البطولة دون أن ندري . كانوا يحولون الملايين المنتشرة على أرض خائفة إلى قبضة يد تتحفز لتغيير مسار المرحلة . كانوا يعطون للفعل الفلسطيني معناه العلني المتكامل الممتد إلى كل الحدود وميزان المدفوعات والنفط والطبقات والشعر والأمية والكبت الجنسي والخيانة . كانوا يفضحون السر الفلسطيني ويزيلون عن البيان الفلسطيني غشاء المجاملة . وكانوا يقولون للأمة انها ليست هي المهزومة ، وأن كل موقع فيها يحمل شروط تل الزعتر . ولذلك ، قاتلوا حتى جرعة الماء الأخيرة وبرزت وجوه أعدائهم الكثيرة . خرجوا من اللحظة الرائجة إلى زمن آخر . وأخرجوا الوطن الفلسطيني من حواجز البحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الميت ونهر الأردن والصحراء .

وحين خرجوا إلينا من بوابات جراحهم الواسعة لم ندخل معهم في عناق متكافىء . كان المستقبل مرمياً على الطرقات . وكنا نغطي وجوهنا بأفراح سرية . كان السكون يغطي المدينة ، وكانت السفينة البطيئة تفرغ أكياس الطحين وتحمل الجرحى وبقايا الطلبة والأعراس . وكانت اسبانيا تمر تحت قوس الظلال . ندخل مرة أخرى في وعي البدايات . سنواصل الرحلة ونصدق أحلامنا . تل الزعتر . سقط . لم يسقط . لن يسقط . كانت قوافل الجراح تصب في المدينة الرياضية وتصفيقنا وتلون فلسطين والمدن العربية الخائفة . وكانت ظواهر الأشياء تعود إلى سياقها الطبيعي : فصل آخر ينتهي وتنزل البطولة إلى تفاصيل أخرى .

لا ، لن يسدل الستار على نهاية بطل ، لأنه يزرع الأرض الآن بدايات ، وأسئلة أخرى . يرحل تل الزعتر عن الأرض ليدخل المحيط الكبير في دورة التدريب . ويعرف الثائر أنه لن يستطيع أن يكون إلا ثائراً . ولأن فلسطين ليست زانية ، ولأنها لا تقيم في حجرة ، فلن تكون حبيبة الجميع . انها صراع الجميع . ويصير اسم صغير مثل تل الزعتر مفترق طرق لكل الجهات . ومن طريق تل الزعتر ، من طريق الثورة نصل إلى فلسطين وأخواتها . والطريق الآخر يؤدي إلى طريق آخر . . إلى سيطرة الكاز على الدم .

أيها النسيان ! إنك تليق بكل الأسماء ، ولكنك لن تكون . . تل الزعتر .

قبل الزيارة وبعد الزائر

عشنا ورأينا

كانت شاشة التلفزيون واضحة أمس. وكانت لعبة المهرجين، المصري والإسرائيلي، واضحة أيضاً.

لم يلتق على مسرح من مسارح التاريخ مثل هذين الخصمين. الكنيست عامرة بالجنرالات والسياسيين الذين أسسوا تاريخ الهزيمة العربية منذ ثلاثين عاماً، يستمعون بدهشة وتقدير إلى أول حاكم عربي بينهم. التعبير على الوجوه متأرجح. إنه يعرض عليهم السلام الكامل والاعتراف الكامل مقابل أن يقنعوا بحدود الهزيمة العربية الثالثة. يعجبون من هذا الكلام الغريب. ويصفقون لأن الخطيب رئيس أكبر دولة عربية. ونبي الاعتراف. ومع ذلك، فإن المهرج الإسرائيلي يرفض ويرفض. وتنتهي المبارزة الودية بالنتيجة التالية: انتحر الحاكم العربي عربياً، وربح أميركيا. وحقق الاكتشاف التالي: إسرائيل لا تريد الانسحاب ولا تريد الاعتراف بالفلسطينيين.

الآن، دورنا لنصفق. هل كان الحاكم المصري في حاجة إلى هذه المقامرة وتقديم وعد بلفور جديد، ليحقق هذا الاكتشاف؟ لماذا ذهب إلى القدس؟ لماذا ذهب إلى الكنيست؟ لماذا اغتال أحلام جيل كامل؟.

نعرف أن هذه الأسئلة وما يرافقها من تساؤل حول كرامة الأمة والوطن غريبة عن رجل في مثل هذا الحجم. ولكننا سنواصل: إلى أين يذهب الآن؟ إلى الرئيس الأميركي ليعاتب أم إلى الجبهة ليحارب؟. وإذا كانت المفاوضات المباشرة جداً جداً في القدس المحتلة قد أوصلت إلى هذه النتيجة، فماذا سيأتي من جنيف؟

ومع ذلك.. مع ذلك. إن شيئاً خطيراً قد حدث. والجريمة تم ارتكابها، وعلى مرأى من ملايين العيون وعلى جثث الآف الشهداء.

لنعترف، منذ البداية. بأن زمناً جديداً للصراع العربي ـ الصهيوني قد بدأ. ولنعترف أيضاً بأن يوم السبت الأسود لم يكن افتتاحية هذا الزمن. كان يوم السبت يوم حفلة الزفاف الكبرى بين القتلة الإسرائيليين وبين القاتل العربي الأول، والقتلة دائماً يلتقون في أول المبارزة وقد يلتقون في نهايتها لأنهم من جوهر متشابه. ورئيس مصر الحالي واحد منهم. واحد من قتلة أحلام شعوبهم. ظل يعبر، ويعبر، ويعبر، حتى ارتمى في أحضان عزيزه الجديد: مناحيم بيغن.

الدهشة تدوخنا على السطح. وفي الأعماق.. لا شيء يثير الدهشة. فإن الذي يزحف بهذه النشوة وبهذا الاضرار إلى البيت الأبيض، لتقديم الاعتذار عما فعلته مصر بأعداء الأرض العربية والإنسان العربي، سيصل إلى أصل العائلة ويدخلها واحداً من أفرادها، متساوي الحقوق، وكامل الذل.

إنه واحد منهم، منذ إخرجه رحيل عبد الناصر من عقدة الظل، مليئاً بالعاهات النفسية وشهوة المسرح، وهو يكدح من أجل هذا الانتماء. فرعون بلا مجد ومن دون جدارة. يدلك حنجرته ويبحث عن منبر شاغر في التاريخ ولا يجده إلا في الكنيست. ما الذي يبعده عن الشطارة الصهيونية؟ سيعرف كيف يزاحمها على دورها ويتفوق. يستطيع العودة إلى الوراء بإيقاع حاسم. حاكم في العالم الثالث، ولا من يقاوم. يغطي النيل والأرياف بتأتأة جهورية، ويحقق المعجزة. صفقوا له. إنه الأول.

أول حاكم عربي يعترف بإسرائيل في أحضانها. وأول حاكم في العالم

يعترف، نفسياً ومعنوياً، « بأورشليم القدس » عاصمة لإسرائيل. إنه ساحر، مدهش، عنوان لكل الصحف في كل أنحاء العالم، إنه اللاعب الأول والأول في سيرك لا يجرؤ اللاعبون فيه على مثل هذه المجازفة. كاميرات وكاميرات. هذا هو المهم، وما قيمة الأرض؟ سيناء رمال ميتة، والجولان جبال وعرة. والقدس؟ لقد وجد الحل، إنها مسجد وكنيسة. وعمر بن الخطاب لم يكن واقعياً ولم يفهم الوفاق الدولي جيداً. جاءها عمر راجلاً يجر ناقة. أما هو، فيجيئها بمصفحة إسرائيلية تحميه من حجارة الأولاد في القدس. وهكذا، ينتهي الصراع. وبعد قليل، قد لا يجده أحد ليذكره بأنه كان أسيراً ذليلاً في القدس. كان مهرج الغزاة.

نحن نشمئز، وهو ينتشي: هل وقف جنرالات صهيون لغيره من الحكام العرب؟.

نحن نبصق، وهو يسكر: هل استطاع حاكم عربي آخر أن ينجز هذه الصداقة، على يمينه بطل دير ياسين وأمامه الذين أبادوا عشرين ألف جندي في رمال سيناء.

نحن نحتقر، وهو يفاخر: هل استطاع الملك سليمان أن يحلم في نشيد الأناشيد بهذا العناق مع الفتاة الإسرائيلية المدهشة غولدا؟

إنه الأول، الأول، الأول.

وإذا قال فعل. قال سأذهب، فذهب. حبيب الأعداء، عدو الأصدقاء، يغطي صورة عبد الناصر فوق السد العالي، ويمسح العرق أمام صورة هرتسل في الكنيست. يفرم معارضيه، ويعانق قتلة شعبه. تجوع الملايين إلى الخبز والفول، فيغرق القاهرة بالكوكاكولا وسجائر كنت الفلتر الميكرونايت الأبيض. وينفتح، ينفتح، ينفتح على كل الغزاة وعلى نشيد « الأمل » الصهيوني، ولا حرام عنده، لا حرام إلا أسئلة الطلبة ومطالب الفقراء.

لقد فعلها وانتهت الزيارة. فماذا بعد، ماذا بعد؟

في عالم آخر، غير هذا العالم الثالث الغارق في القمع والاستبداد، لا تقع هذه الجريمة في مثل هذه الوقاحة، لقد انقرض هذا الصنف من المهرجين في عصرنا. هنالك أحزاب، برلمانات، ديموقراطية. صحافة. رقابة شعبية. أما هنا، فالحاكم هو الوطن، والوطن هو الحاكم. لذلك فإن ما يفعله هذا الحاكم المصري، منذ سبع سنين خطير، يعادل الكارثة.

لقد أدخل الصراع العربي ـ الصهيوني في زمن جديد. زمن التسامح والاستسلام. لنعترف بذلك، ولندبر أمورنا على هذا الأساس. وسواء أعطاه الإسرائيليون شيئاً يعادل ما أعطاهم، وهم لا يملكون مثل هذا الشيء، أم لم يعطوه، فإن شيئاً جديداً قد حدث في مسيرة الخطأ والخطيئة المستمرة منذ حرب تشرين.

لا يكفي أن نقول اليوم ان حاكم مصر لا يمثل العرب ولا يمثل مصر. دقت ساعة الحقيقة لتنذر بالكارثة الناجمة عن هذه العلاقات القائمة في بنية المجتمع العربي. دقت ساعة إعلان الصراع من أجل الديمقراطية التي صارت في أهمية الخبز وفلسطين في هذه اللحظات. ففي غيابها يفعل الحاكم، أي حاكم، ما يشاء. يجوِّع الناس ليفرغها من ضغط المسألة الوطنية، ويلجم القوى المؤهلة للتحرير، ويقفل الطرق المؤدية إلى فلسطين. إن بقاء حريات الجماهير الديمقراطية على هذا المستوى من القمع يهدد أي وطن وأية أرض، ويوفر لنموذج الاستبداد العربي إمكانية تحويل الأمة إلى أمةٍ من دون دور، ومن دون شخصية، ومن دون مستقبل.

لنعترف بأن شيئاً خطيراً قد حدث، وبأن الصهيونية قد حققت انتصاراً كبيراً: فإن حاكم مصر، بزيارته الذليلة، قد يكسر في النفسية العربية جدار الحرام. ويخلق ثغرات في الوجدان القومي يصبح الاعتراف بالكيان الصهيوني فيه شأناً قابلاً للاجتهاد. لقد وفرت زيارة حاكم مصر المرفوع على حراب الغزاة وعلى احتقارنا، قابلية رائدة للتعايش غير المتساوي بين العرب مسلوبي الحقوق والأرض وبين الغزاة في شروطهم التي يملونها. لقد كسر الجرة كما يقولون، وصارت الصهيونية إمكانية عربية.

ولنواصل الاعتراف بأن شيئاً خطيراً قد حدث، حتى لو عاد الزائر صفر اليدين والضمير: إن احتمالات ابتعاد مصر عن معركة الأمة ودخولها في الصدفة الاقليمية، سيغلق علينا إمكانيات ضاغطة، مدججة بوسائل الدفاع الفكرية، لشرعية الدعوات الإنعزالية في أنحاء الوطن العربي. إننا نواجه الآن اختمار تحول إسرائيل من موضوع صراع إلى نموذج يحتذى، لقد أدخلت مسيرة الحاكم المصري الجنين الصهيوني إلى مناطق الضعف، وهي كثيرة، في الجسد العربي الذي يبدو في هذه اللحظات العابرة عاجزاً عن النبض والومض والرفض والحركة الحرة.

شيء لا يصدق. ولكنه وقع. علينا أن نبدع زمننا وأن نبذل جهداً ضخماً لتحصين النفسية العربية من احتمالات انتهاك قوانين الصراع مع العدو الصهيوني. إن دماً جديداً، قادماً من استبداد الحاكم ومن قيادة الرجعية، يصب الآن في عروق الكيان الصهيوني ويمنحه حياة جديدة. ويذهب الإسرائيليون إلى الحياة الآن باطمئنان لم يعرفوه منذ ثلاثين سنة، على الرغم من إمكانية «الحرج الإعلامي» الذي سيسببه لهم ذل الحاكم المصري!! لقد ذاقوا طعم الاعتراف المجاني، وسيعتادون على سلسلة الاستسلام العربي. ومن حق التاريخ الصهيوني على أرض فلسطين أن يتباهى باعتماده على شرعية العنف والنزعة الانتحارية التي جرت حاكم أكبر دولة عربية، ومن دون سبب موضوعي، إلى أرخص استسلام في مطار بن غوريون.

إن ما شاهده الإسرائيليون أكبر من انقلاب في تاريخ علاقاتهم بالعرب. أكبر من وعد بلفور. أكبر من انتصار عسكري. فهل أنقذت اسرائيل من مأزقها التاريخي؟. لا. ولكن السؤال صار مؤجلاً الآن بعدما ارتبط مأزق إسرائيل بمأزق أكبر نظام عربي.

والسؤال الأهم: هل ترضى مصر بهذه الكارثة؟ إن حاكم مصر هو المسؤول عن استسلامه الشخصي الذي جرده من أية شرعية. ومصر هي التي تعرف، كما عرفت دائماً، كيف تواصل دورها المؤسس. وتعرف أن بقاء حاكمها الحالي على المسرح هو الخطر اليومي عليها وعلى فلسطين وعلى

الأمة. لا يستطيع أي حاكم أن يجعل مصر صغيرة وأن يسجنها في الحدود واللحظة الراهنة.

إن رحيل حاكم مصر إلى الجحيم، أو إلى أي مكان يشاء، سيغير كل شيء، ويفجر كل شيء.

ومصر هي التي تغير

وهي التي تفجر.

المعنى والمبنى

هل أدركت العرب الآن أن الطريق إلى واشنطن تؤدي إلى تل أبيب؟ وأن حروباً كثيرة ستندلع من جنين هذا السلام الطاحن، الذي ولد في ساعة متأخرة من ليلة أميركية أعدت لتكون فجر العرب؟.

شيء من المسرح، وأشياء كثيرة من الواقع. ولا أحد يستطيع أن يقف خارج الحلبة. لا أحد يبريء نفسه من الواقعة. ولا أحد يسلم من انهيار ما. لأن لحمنا هو النص، ولأن الثلاثة قد يكثرون. ذكريات وانقلابات. هل كنا بعيدين عن تلك العبارات الحماسية إلى هذا الحد؟، وهل الفنا هذه اللغة الرائجة؟. سقطت بنايات كثيرة في القاهرة بسبب الغش في كمية العلاقة بين الاسمنت والحديد ودم الشهداء، فتساءلنا: هل البناية معنى أم مبنى؟. وقال آخر: متى يكون النيل الأزرق أزرق؟ هل كانت دير ياسين حادثة سير دون أن ندري؟ وهل كانت سيناء إسرائيلية ليتم شراؤها بالعروبة؟. الدخان الأبيض سيخرج من النافذة. وأكثر من ذلك: إن للأهرام بناة آخرين. ومن سيصحو على اكتشاف الخطأ: الذي قال إن إسرائيل لن تشتري الصلح بالرمل، أم الذي قال إن فرعون الصغير لن يرتكب النصف الآخر من الخيانة؟. غداً نعرف، ولكن الحاكم المصري يستولي على الجمعة ويصلي. والحاكم الإسرائيلي يستولي على السبت ويصلي. والحاكم الأميركي يستولي على الأحد ويصلي. ولا أحد يسأل: لماذا يؤمن القتلة بالله! ثلاثة عشر يوماً

محاطاً بكاميرات السرية، وصلوات البابا الجديد، وأميركا، وباعة الكاز، والصامتين من فرط الأمل، واليمين المتحفز للنجاة. معادلة النجاح والفشل تلعب بالناس كالمباراة، ولا يخرج من كامب ديفيد إلا هدير السكون، وافتتاح يقول: « على العرب أن ينسوا القومية العربية، وعلى الفلسطينيين أن يدركوا أنهم بلا مستقبل ». يزدحم الصمت، ويثرثر المذيعون، وإعلانات البضائع الاستهلاكية، وهي دائماً أميركية أو يابانية، ولا يفعل أحد شيئاً غير فضيلة الانتظار. وفي اللحظة الأخيرة، حين استطاع كل من الحاكم المصري والإسرائيلي أن يضمن حب أميركا [أو صداقتها] هجم عليهما كارتر بتحديد موعد النهاية. ويقول شهود عيان أن ذلك قد جرى بسبب هطول الأمطار، وعدم تمكن الحكام الثلاثة من ركوب الدراجات، وانخفاض درجة الاستمتاع بالطبيعة في كامب ديفيد. عندها.. انحلت عقدة النص، وانتهى الصراع المصري - الإسرائيلي، إذ تعانق السادات وبيغن طويلاً طويلاً، وفي حرارة العناق ذابت الخلافات الشخصية، وضحى كل منهما بكرامته في سبيل الوطن [كان السادات قد وصف بيغن بأنه مر. وكان بيغن قد وصف السادات بأنه سوقي ورخيص]. وسافر الثلاثة إلى واشنطن ليعلن كارتر، وهو يمشي كالطاووس كما تقول وكالات الأنباء، انتصاره الشخصي، وليعلن بيغن انتصار الصهيونية في هذه الجولة بقطف الثمار الأولى لنتائج الخامس من حزيران، وليعلن السادات تعهده بسحب مصر من العروبة ومن دائرة الصراع العربي - الإسرائيلي، وليوحي الثلاثة بقيام حلف جديد في المنطقة، وبأنهم سيكثرون.

فهل أدركت العرب الآن أن الطريق إلى واشنطن تؤدي إلى تل أبيب؟ وأن حروباً كثيرة ستندلع من جنين هذا السلام الطاحن، الذي ولد في ساعة متأخرة من ليلة أميركية أعدت لتكون فجر العرب؟.

يرقص الإسرائيليون حتى الفجر.. كان الهيكل اليهودي الثالث القائم على جماجم الآخرين قد توطد هذه المرة بقيامه على دعائم الأهرام، بعدما انجز الوعد بتحويل سيوف مصر إلى محاريث لدفن العروبة في الرمل،

وبتحويل رماحها إلى مناجل لحصاد السراب في سيناء، وبتحويل ما تبقى من السلاح إلى قمع الجائعين في مصر، والمتمردين على أميركا، وعلى العنصرية في أفريقيا. [ولا تكون حروب بعد اليوم] كما قالت التوراة مرة، وقالت ثانية: [لا سلام - قال الهي - للأشرار]. يرقص الإسرائيليون حتى الفجر. سيرقصون قبل أن يمتحنوا قدرة هذا الفرح على الاستهتار باحتمالات مصر والشرق العربي، وقبل أن يختبروا مدى شرعية الحاكم المصري في تمثيل مصر. فهل يستطيع هذا الفرد الذي لا يشبه أحداً في تاريخ التنازل، أن ينزع مصر من ذاتها ومن عروبتها، وأن يبيع جسدها مقابل أصبع واحدة من قدمها؟ وهل يستطيع أن ينقل القدس من تاريخها وصخورها المقدسة إلى رسالة ضائعة في بريد الأحلاف الجديدة؟ وهل يستطيع أن يخمد معجزة الانبعاث الفلسطيني التي تجاوزت مذابح لا نهايات لها، ووصايات لا تحصى، حتى استقرت كأحد عناصر الطبيعة في هذا العالم؟ وهل يستطيع أن يلجم روح الامة التي صاغتها التجارب والحروب لتصقل إرادتها وتبدع ذاتها من جديد؟. اسئلة لا تطرح على ايقاع الرقص الإسرائيلي، ولا على نشوة الحاكم المصري بالقاب حسنة أسبغها عليه الصليبيون الجدد، بل تطرح علينا، وعلى الأمة، وعلى قوى الصمود، وعلى النبض والأرض والرفض، لنجتاز امتحان الكارثة، ونعرف كيف يتم عزل النظام المصري بواسطة شعب مصر، وبدعم شعب مصر، ونعرف كيف نهيىء أنفسنا لحرب ديفيد المعلنة. ويرقص الإسرائيليون حتى الفجر، لأنهم دائماً يعرفون كيف يعبدون تماثيل الوهم، ويعرفون كيف يحتفلون بفتات من يعطي بلا ملكية، فتاريخهم الجديد سلسلة من الرقص حول هدايا قدت من لحمنا، وكنا نخرج في وجوههم. وسيرقصون لمعنى آخر للسلام، هو خروج مصر من المعركة، وتوفر شروط أفضل لحروبهم القادمة ضد الشرق العربي، فالجبهة الجنوبية تنتهي بسفارة إسرائيلية في القاهرة. ولهم في أفريقيا حليف جديد. وبغداد بعيدة عن دمشق. وفي لبنان لهم جنود. وسيرقصون حتى الفجر، لأن رئيسهم قال لهم: لا ترقصوا حتى الفجر. وقال أيضاً: « لن يرفرف بعد الآن أي علم عربي فوق القدس. لن ننسحب من الضفة الغربية وقطاع غزة، ولن تعود

الجولان أبداً إلى سوريا. وستبقى القدس عاصمة إسرائيل ما دام الشعب اليهودي حياً. هذه هي اتفاقية كامب ديفيد ».

. . وهذه هي أميركا، وهذه هي التسوية التي تطرحها موازين القوى الراهنة، وهذه هي فضيحة قرار ٢٤٢ في التفسير الأميركي. هل يستطيع العرب، الآن، البرهنة على استقلالهم الوطني؟. إن قدرة اتفاقيات كامب ديفيد على التطبيق هي التي تشكل تحدي هذا السؤال، والسؤال الذي يليه: هل يستطيع العرب صياغة جبهتهم الثورية وعلاقاتهم الدولية في مواجهة الحملة الصليبية الجديدة؟. إن مئات من الأسئلة يطرحها صلح كامب ديفيد على الحرب الوطنية، وعلى الصراع الاجتماعي، ولا يطرح سؤالاً حقيقياً على السلام. هل سيحل العلم الإسرائيلي المرفرف على ضفاف النيل، بعد قليل، المسألة الاجتماعية في مصر، ويؤمن لفقراء مصر مزيداً من الخبز والفول؟. لم يتمكن كامب ديفيد من مجرد الاحتيال على فلسطين والأرض العربية المحتلة، فلم يطرح أمامنا إلا الحرب. لقد هتك هذا الطراز من التسويات. هتك الطريق إلى سلام بلا سلاح وبلا عدل وبلا فلسطين. هتك البدايات والاجتهادات واحتمالات تحييد أميركا بلا قوة. وعرف عبيد الاستهلاك الأميركي على أبجدية الامبريالية. وكشف للجميع الدور التدميري الذي مارسته اللغة السياسية العربية الجديدة المتحررة من لغة التحرير، مستعيضة عنها بلغة « التسوية العادلة » فتم اختراق وجدان الأمة ليتسلل إليها بعض القنوط وعادة تعميم الشك والشبه، فكان الشارع هادئاً، والجريمة في الشارع. هل نستحق الحياة؟ هكذا يسأل المواطن العاجز عن الحركة والاعتراض، ويضيف: لماذا لا نضرب أميركا الموجودة فينا، على الأرض وفي النفوس؟ لماذا لا نقاطع أميركا؟ لماذا لا نسحب أحلامنا، قبل سفرائنا، من أميركا وهي أم إسرائيل؟. كل الأسئلة مطروحة على الحرب، ولا سؤال واحد يميل إلى السلام. ومن الذي تدهشه نتائج كامب ديفيد؟. ألم تكن زيارة السادات واضحة، من قبل ومن بعد؟. وسيبقى السؤال القديم - الجديد واقفاً، كالندم، على أكثر من بلد، وعلى أكثر من قارة: من أية ثغرة يأتينا هذا الغياب الذي يجعل ارادة فرد، طائش أو خائن، قادرة على مقايضة

أوطان دون أن تهتز أعمدة الهيكل؟ ومن أي خداع يقاد الضحايا إلى طريق المطار للتصفيق لقاتلهم؟ هل سألنا عن الحرية؟ نعم، لأنها شرط لخوض حرب التحرير. هل قلنا حرب التحرير؟ نعم، لأنها الخيار الوحيد الوحيد. فاما أن يتحول العرب إلى حرس للاحتلال، واما أن يخوضوا الحرب حتى النهاية. لقد أعلنت حرب ديفيد على من يرفض الاستسلام، وعلى من يحلم بالوطن، وعلى من يتحرر بالثورة. وعاد الثلاثة من كامب ديفيد بحلف جديد. وبوعد سيناء وبالحرب. أما الأرض المحتلة فستبقى محتلة، والقدس في الرسائل. فهل تغير شيء؟. بالحرب وحدها نستطيع السير إلى السلام. وبتحرير فلسطين نجد الفارق بين الاستسلام والسلام. والذين ما زالوا يحلمون بإمكانية إحلال السلام تحت حراب الاحتلال، محكومون بالسير إلى واشنطن.

فهل أدركت العرب الآن أن الطريق إلى واشنطن تؤدي إلى تل أبيب؟ وأن حروباً كثيرة ستندلع من جنين هذا السلام الطاحن، الذي ولد في ساعة متأخرة من ليلة أميركية أعدت لتكون فجر العرب!.

هامش

. . وها نحن يمتد بنا الأجل ونرى إلى انسحاب مصر الاحتفالي منا ومن المعركة ، ونرى عملية سحب مصر من ذاتها إلى المجهول لفترة ما من الزمن . فليترك السلام جثة هامدة على الأرض والورق ، أو لفظة ضرورية لنشر الوعي الزائف . إن ما يحدث هو هجوم أميركي على رياح ستهب . وان ما يحدث هو انتهاء شهر العسل بين الرجعية العربية ودورها في إنجاز « السلام العادل » . فلم يعد في وسع التضامن العربي ، الهادف إلى تحرير الأوطان المحتلة ، أن يتسع للذين يغذون شريان آلة القمع الأميركية والإسرائيلية ، بعدما تحررت أميركا من المهام المستحيلة في الاحتفاظ بصداقتها الاستثنائية للصهيونية وللقومية العربية ! .

لقد انتهى الصراع العربي - الإسرائيلي من حول أميركا إلى النتيجة الوحيدة الممكنة : الوصول إلى معاهدة صلح مع إسرائيل . أو إلى النتيجة الأخرى المعدلة عن الأولى : العجز عن تدمير الأسس التي نشأت عنها المعاهدة التي تعلن الحلف الجديد ، أو الوحيد حتى هذه اللحظة ، في هذه المنطقة الثمينة من العالم التي لا تعادل هزيمة أميركا فيها إلا هزيمة العرب في مصر .

سينال الحاكم المصري من هجاء اللغة العربية ما يعجز الإعلام الغربي عن تعويضه . ولكن الدهشة لا تستطيع الشفاعة للذين يقفون على الرصيف

في انتظار التوبة . فهذا الحاكم الفرد الذي يسرق الشرعية من ملايين الفقراء، والذي يمثل أحد تجليات المزاح الكريه الذي تفرج به ساعة من التاريخ عن سأمها، لا يستطيع العودة إلى الوراء، أو إلى «حظيرة» الأمة كما يقول الوزراء المتحررون من حاسة الدلالة. ولذلك فإن الصبر الجميل الذي يتحلى به عرب أميركا، القادرون على لمس «التناقض» بين واشنطن وتل - أبيب، هو بمثابة المشاركة في وضع سياق المعاهدة على الرغم من الاعتراض على بعض بنودها. وأن بحث العرب الرصين عن مدى الربح، أو الخسارة، الذي تقدمه المعاهدة الأميركية - اليهودية - المصرية لهذا الطرف أو ذاك، أو التساؤل عن قابليتها للتطبيق، وعن صلاحية بنودها الغامضة في التفاصيل والواضحة في الجوهر، لفتح باب الصراع على التفسير على غرار قرار ٢٤٢ الشهير، أو طرح عشرات من الأسئلة في إطار المعاهدة المرجعي، سيكون بمثابة غض الطرف عن الواقع الذي لم يخلقه التوقيع على المعاهدة، بل إن هذا الواقع هو الذي خلق المعاهدة. ولذلك فإن الخروج العملي من منطقة المعاهدة، يتطلب أولاً محاكمة الواقع الذي أنجبها، لكي يكون النقد الذاتي دليلاً على صدق التحرك العربي لتجنيب الأمة حتمية السادات.

فما الذي كان ينتظره التضامن العربي ليتحرك؟ أليس خط السادات السياسي، منذ انقلاب ١٥ أيار، نذيراً بالتخلص من كل الكوابح الوطنية وإحكام تبعية الوطن لأميركا. ألم يكن في زيارة القدس ما يشير إلى أن خطوات السياسة المصرية، داخلياً وخارجياً، مرسومة بدقة في اتجاه إخراج مصر من المعركة العربية ضد القلعة الصهيونية، واستبدال العدو الإسرائيلي بعدو وهمي هو الشيوعية الدولية؟

لقد وجد السادات في التشجيع العربي العام لهذا الخط الإستراتيجي العام ما يمنحه الشجاعة الكافية لفضح التطبيق العملي والحرفي لصيغة التسوية الأميركية التي اندرج تحت صياغتها الكثيرون. فهل بقي الخلاف كبيراً إلى درجة تتفق مع هذه الدهشة التي تضرب القارة العربية؟ صحيح أن مؤيدي السادات ومموليه العرب يكابدون من أجل حلف علني أو مبطن بين أميركا والرجعية العربية، ولكن لباقة الادمان على ترديد اسم المسجد الأقصى

تحول دون أن يجلس المسلمون واليهود في معاهدة واحدة. فكيف ستحل هذه المعضلة؟ ليست تلك مشكلتنا. ولكننا نستطيع أن نرى أن الحلف الأميركي ـ المصري ـ اليهودي الذي قد يعوض أميركا وإسرائيل بعض أحزانهما الفارسية، وقد يضع حجر الأساس لمبنى من العلاقات والتحالفات لحماية النفط العربي من العرب والأمن الإسرائيلي من السلام والأمن المصري من الإسلام، يدفع صيغة « التضامن العربي » المفتوح بشروط هي لا شروط إلى امتحان الفضيحة في مواجهة السؤال الذي يتعرض للطمس: ألا يزال العرب يعتبرون إسرائيل عدوهم القومي؟ إذا كان الجواب « نعم » فهل يستعدون لإعداد شروط محاربته والضغط المادي عليه لإرغامه على قبول الحد الأدنى من شروط السلام العربي على الأقل؟. إذا كان الجواب « نعم »، فهل يعرفون أن الذي يحارب إسرائيل يختلف مع أميركا؟ إذا كان الجواب « نعم »، فهل يعرفون أن أميركا هي صانعة الحلف الإسرائيلي ـ المصري؟ إذا كان الجواب « نعم » فهل هم على استعداد لإنزال العقوبات الممكنة بأميركا وليس بمصر فقط، هذا إذا افترضنا أنهم سينزلونها بمصر؟

نحن نسأل، ونتساءل لأن الحملة الأميركية ـ المصرية لنشر الوعي الزائف، تقابلها حملة مضادة من الوعي الزائف أيضاً بقطع المعاهدة عن جذورها الاجتماعية التي لا يشكل الوضع المصري تجليها الوحيد، وبحرمان مناقشتها من حق مناقشة الذات العربية التي ما زالت معلقة بسراب علاقة خاصة بأميركا تحمي سياج « حظيرة » الأمة من خطر التوسع الصهيوني والفزاعة الشيوعية. ولأن هذا الوعي الزائف قد زيف تاريخية المعاهدة، وحولها إلى مسرحية على شاشة التلفزيون، جعل المواطنين في هذه الأمة مشاهدين محايدين في مباراة رياضية عنيفة، استطاع كارتر في الدقائق الأخيرة أن يسجل الهدف في مطار القاهرة.

فكم من الوقت سيمر لنعلم أن لحمنا هو الميدان، وان إصابة كارتر التي مررها له الجناحان السادات وبيغن قد استقرت عميقاً في شبكات عيوننا!...

والسادات هو الخائن، وهو العدو. ولكن، هل يوافق « التضامن العربي » على أن كارتر عدو أيضاً؟ . وبيغن يذكرهم بشيلوك الذي لن يتوقف عن ابتزاز ثمن باهظ للمعاهدة. ولكن، من أي نفط ومن أي مال سيدفع كارتر لبيغن؟ كيف نكون جادين في معاقبة نظام مصر إذا كنا نعطي أميركا كل شيء، ونمطاً من الحكم يخرج الناس من السياسة ومناقشة مصائرهم ومصير أوطانهم، ويحول الدولة إلى أداة قمع للناس، فلا يكون السادات هو الفرد الوحيد الذي يتصرف بالوطن كما يتصرف اقطاعي بمزرعة. إن الثلاثين ساعة التي استغرقتها مناقشة البرلمان الإسرائيلي للمعاهدة قبل التوقيع عليها هي، بالنسبة لنمط الحكم العربي، فضيحة ودعوة ملحة لإعادة النظر في أمور البيت. فإذا كان إيماننا بشعب مصر العظيم صادقاً، وإذا كانت المعاهدة تعبيراً عن خيانة فرد يمثل طفيليات المجتمع، فكيف أتيح لهذا الحاكم الفرد أن يحدث هذا الانقلاب في منطقة الشرق الأوسط؟ إن الاجابة الديمقراطية عن سؤال الحكم هي التي تضمن للوطن مصيراً لا يقرره فرد. أما القمع السائد وملاحقة الأفكار والأحلام، والإعدام بلا محكمة وتهمة، وتفتيت المجتمع وسيادة الطفيليات على الدولة، فإنها حجر الأساس في المبنى الفاسد لاتخاذ القرار، مما يحول إسرائيل من عدو إلى ذريعة حكم في أكثر من وطن.

إن ظاهرة السادات، الذي سيجمع مجلس الشعب المصري للتصديق على المعاهدة، وسيمنع أي اعتراض عليها، ويطلق الشرطة والجيش في الشوارع والمصانع والبيوت، هي دعوة ملحة لوضع مسألة الحرية والديمقراطية البند الأول على جدول أعمالنا، لكي لا يكون الملك هو الوطن ولكي لا يكون الملك قادراً، بمثل هذه السهولة، على تحويل مسألة في خطورة الصراع العربي ـ الإسرائيلي، إلى صراع إسرائيلي ـ عربي ضد العرب، ولكي لا يتحول الجنود العرب إلى صيادي ثوار. فإن أسرى الدولة، أسرى المقاولين والتجار والسماسرة لا يستطيعون الدفاع عن دولة تسحقهم.

وأخطر ما في السادات أنه ظاهرة مألوفة، تتحول إلى جزء من حياتنا

اليومية، وإلى طراز متوفر، متيسر، ومنتشر كانفجارات بيروت التي يرتفع في سمائها دخان المطاط المحترق، الذي قد يصل جزء منه إلى الضفة الغربية، ليبلغ أهلنا هناك أنه ما زال فينا شيء يتنفس، وأن السادات هو الناطق الشرعي عن طفيليات الحكم العربي، ويا ليته يكون الناطق الوحيد...

القفص

وأخيراً، محاكمة.

سألنا: هل يحضر المتهم؟ فابتسمت قافلة المسافرين إلى دمشق. وقال ضابط على الحدود: ماذا ستفعلون به؟ قلنا: سنتلو أو نستمع إلى تلاوة لائحة الاتهام.

وكنا نتساءل في صمت: هل تأخرنا قليلاً أم كثيراً؟ لقد دق جرس الإنذار مبكراً، وكان على النيل أن يعرف أن مجرد تحول هذا الفرد ـ هذا النوع من الأفراد ـ إلى احتمال حكم، يعني أن نواطير مصر نامت عن ثعالبها. ويعني أن في العالم الثالث كله خللاً. ويعني أن المحاكمة ستشمل البناء، والمرحلة، وشروط الطاعة.

ولكن النيل لا يصب في نهر آخر. وكان واضحاً لمن أكتوى بالرمل أ ـ إقامة الجندي في هذه الرمضاء ستحوله إلى يد فولاذية لاقتحام الماء الأزرق المغسول بالدم، ليس من أجل الوطن وحده، بل من أجل الخلاص من مقبرة الرمل. ولكن القناة على الأرض شيء، وعلى خارطة الحاكم شيء آخر، فهي ليست أكثر من خيط رفيع من الماء يفضي إلى رمل آخر. إن مثل هؤلاء الحكام غير قادرين على التمييز بين حبة الرمل وبين التاريخ الإنساني الذي يحمله قلب فلاح من الصعيد، لأن له طريقة خاصة في تحديد أعدائه. فاعداؤه هم أولئك الحفاة الذين يمرون بالقصر على مهل دون أن يسألوا:

لماذا نطيع؟ وأعداؤه هم أولئك الطلبة الذين يتدربون على صياغة السؤال: لماذا نطيع؟ أما الغزاة الذين يذلون مصر والأمة فهم أصدقاء المستقبل، هم الشهوة المكبوتة، والوعد الأميركي الجميل.

إلى أين تتجه المدافع إذن؟ وأية حرب نخوض؟ لذلك كان على الذين لم يعرفوا حقيقة انقلاب الخامس عشر من أيار أن يعرفوا أن هذه النهاية لم تأت من زاوية الانعطاف، بل من نقطة البداية. وان زيارة القدس، كانت حتمية المسار دون أن تحتاج إلى ارتداء هذا الشكل من الطقوس والتفاصيل. وان الحاكم المصري لم يعلن الحرب على مصر من مطار اللد عندما كان يعانق جنرالات إسرائيل، وإنما أعلن عليها الحرب حين منع جنود مصر العظيمة من اجتياز الرمال.

ولنا تقاليد. نحن دائماً نأتي إلى السؤال متأخرين. لذلك نسأل: هل حضر المتهم؟ تصمت قافلة المسافرين إلى وقت الإعلان عن المحاكمة. ولكن رئيس وزراء الغزو الصهيوني السابق يجيب عن السؤال، ومصر ذاهبة إلى ذكرى ٢٣ يوليو: «إن هدف السادات البعيد المدى هو أن يضم إسرائيل إلى مجموعة دول الشرق الأوسط التي ستتصدى للمد السوفياتي. وان الخطر السوفياتي يقوم مقام الصراع العربي ـ الإسرائيلي في نظر المصريين. والسادات مشغول البال من التغلغل السوفياتي في البحر الأحمر وفي القارة الأفريقية».

إنه ذاهب حتى آخر الشوط، متفائل حتى الجنون. ولا أحد يوقفه. لا أحد يوقف هذا التدهور. ونحن نقرأ لائحة الاتهام التي يغذيها كل يوم بجريمة جديدة، لأن الحاكم العربي لا يحاكم. ألهذا السبب يتسم الجميع؟. ولا تكفي أصابع اليدين لاحصاء عدد المتهمين؟ ولماذا لا يسقط الساقط وحده، ولا ينهار المنهار؟ وهل تعوض قوة القانون عجز السياسة الذي جعل من مسار النظام المصري انعطافاً لاتجاه المنطقة في غياب الفاعلية الثورية المضادة؟

لن نحزن على رجال القانون والباحثين الذين يسهرون الليل ليبرهنوا لنا على أن الحاكم المصري قد خالف القانون.

إن كلمة ما يجب أن تقال، لكي لا نكون جميعاً موتى. لا أحد يرجو من الحاكم شيئاً، لا أحد يتوقع منه غير المزيد من الخيانة، ولا أحد يوقف التدهور. ولكن كلمة ما يجب أن تقال، لكي لا يكون المناخ كله فاسداً، ولكي لا يصدق مزيد من الأبرياء الذين يأتيهم الوعي الوحيد من إذاعة القاهرة أن الخبز يأتي من فرن الاستسلام.

وهذا هو حزني الوحيد: كيف تخرج قرية في الصعيد، بنقرها وقبرها، بأهلها ورملها، لتهتف: يحيا بيغن! . أية عملية بناء نفساني استطاعت أن تضع جائعي مصر أمام رجاء نبوي بأن يأتيهم هذا الحاكم بصحن فول من قبر الجندي الإسرائيلي المجهول، الذي دفن الألفا من بنيهم في رمال سيناء، وعلى امتداد مدن السويس، فحمل إليه حاكمهم باقة ورد؟.

من أجل حماية هذا الوعي تكون المحاكمة. وأخيراً محاكمة. ولا أحد يتوقع شيئاً، لأن الجميع يسألون عن الجدوى والفاعلية، وعن السبب الذي حول الرد على إخراج مصر من المعركة ومن السياسة إلى مسألة قانونية لا تغطي العجز عن بناء الجبهة المضادة، وعن إعادة الصراع العربي - الإسرائيلي إلى محور العلاقات العربية وتحديات الأمة. فمنذ الزيارة حتى الآن تفككت مقولة الصراع، وصارت أكثرية الأنظمة العربية تحارب على جبهات أخرى، وصار الاستقلال الوطني يعني التوغل في إلغاء التناقض بين حركة التحرر العربية وبين الامبريالية من جهة، والتخلص الأحمق من علاقات الصداقة والتحالف مع القوى الثورية العالمية من جهة ثانية. واستبدل عدو الأمة الصهيوني بابتكار الخطر السوفياتي.

.. فوضى في المفاهيم واللغة والتحالفات، ولم يعد التحدي الصهيوني يوحدنا. وتتم الوحدة على مستوى آخر: اقرأوا قرار الجامعة العربية ضد اليمن الديموقراطي جيداً. وراقبوا ما تحت سطح التحركات العربية، بعد أحداث أفغانستان، ملياً. واقرأوا الخطب الرسمية بقليل من سوء النية. فليس التضامن العربي مستحيلاً إذا كان محتواه الجديد ادعاء الخوف من الخطر الشيوعي الذي أصبح اسماً مستعاراً للتخلي عن المهام

الحقيقية. ولا تسألوا. من هم أعداء العرب؟ فكل الأرض حررت، وعاد اللاجئون إلى أوطانهم، وعم الرخاء القارة الممتدة من البحر إلى البحر، ولم يبق في السجون معتقل سياسي واحد، ولم تعد الكوكا كولا حلماً، ولم يعد شرطي عربي واحد يشكو البرد بعدما استقر في عظم المواطن. ولا ينقص الاستقلال العربي الآن إلا مواجهة الزحف السوفياتي الأحمر! ألهذا السبب عم الإرهاب الأسود الأرض؟ وهل انتصر السادات إذن؟ إن مصيره مرتبط بقابلية هذا الخداع على الشيوع، وبمدى ما سيظل الصراع العربي - الإسرائيلي ضائعاً في عمى الألوان السياسي. فمن سنحاكم إذن؟ والحاكم يملك النفط والقاضي وهيئة الإدعاء والشهود والمتفرجين. هل تمر الجريمة بلا محاكمة إذن؟ إن الشعوب لا تحاكم جلاديها بقوانين جلاديها. إنها تحرر نفسها فتكون حريتها هي عقوبة الجلاد. ومع ذلك، فإن محاكمة السادات، باسم الآخرين، تتحول إلى إمكانية لوقاية المناخ من التردي والتردد. إنها لحظة الكلمة التي يجب أن تقال، لحظة السؤال عن سبب الطاعة، لحظة حرية في زمن القمع وعلى مرأى من العبودية. سنسمع صوتاً، سنفضح أكذوبة، وسنعي من جديد أن المحكمة تشمل زمناً، وإن قارة بأكملها تجلس في قفص الاتهام.

وفي طريق العودة سألنا ضابطُ الحدود: ماذا فعلتم بالسادات؟

قلنا: سنحاكمه في بغداد.

قال: متى؟

قلنا: في أوائل آب، والحر شديد.

تساءل: بأية تهمة؟

أجبنا: الخيانة العظمى.

سأل: ومن سينفذ القرار؟

قلنا: مصر.

قال: وانتم، ماذا ستفعلون؟

قلنا: سنحاول العودة إلى بيروت.

سَلام سَلام . . ولا سلام

. . . ولا نلتفت إلى الوراء قليلاً إلا لأنه يحاول أن يتقدم ، ولأن سنة واحدة من عمر الزيارة الشهيرة التي قام بها الحاكم المصري لنصب الجندي الإسرائيلي المجهول ، كانت كافية لاقناع الجميع بأنها لم تؤسس انعطافاً بقدر ما كانت محصلة انعطاف عن قواعد الحد الأدنى من إدارة الصراع العربي مع الشركة الصهيونية على أرض فلسطين ، وتعبيراً عن فلسفة الحاكم المصري الجديد بخلق توازن قوي جديد ، يتعهد فيه الأصل العدواني بالقيام بمهمة إنقاذ الأرض العربية من سيطرة فرعه الممتد في منطقة الشرق الأوسط.

كان على أميركا ، في اجتهاد السادات ، أن تقود حركة التحرر العربية في معركة تحرير الأوطان المحتلة ، وإقامة الدولة الفلسطينية التي تشكل البديل التاريخي الكامل للنشاز الصهيوني العابث في الجسد العربي . وكان عليها ، في سياق هذه العملية ، أن تشيع الرخاء والرفاهية وأن تستأصل الأمية والكوليرا ، وأن تستنبط الجنة في الصحراء ، فيتأهب الإنسان العربي لدخول القرن الحادي والعشرين أمريكيا مؤمناً ، وتنتهي معاناة جيل كانت العقلية العربية ، خلاله ، انتحارية النزعة بربطها الصهيونية بالإمبريالية ، مما ذهب بالدم والنفط هباء ، وجعلنا عرضة « للخطر الشيوعي » الرابض على سيناء والقدس والضفة الغربية والجولان وعمان .

هل كان السادات بسيطاً إلى هذا الحد؟ . إن السؤال ذاته يبدو أبسط

من صياغته، إذا ما جرت محاكمة مسيرة السادات على مستوى الاجتهاد، وما يحمله من احتمالات الخطأ والصواب. وتزداد المسألة تبسيطاً، إذا بقيت المسألة على المستوى ذاته، فنسأل: هل انقلبت أميركا على ذاتها وحددت لنفسها هذه المهمة الثورية الكبرى: تحرير الشعوب وتطويرها؟. لا شك في أننا نمزح، أو نسخر. ولكن السخرية تزداد فتكاً بالنفس وبالقدس، ونحن نقرأ الواقع العربي الذي ينتظر عودة السادات من أحضان بيغن، أمام نصب الجندي الصهيوني المجهول إلى نصب الجندي العربي المجهول أو لإقامة نصب لشهداء دير ياسين المعروفين!.

إنه ينتمي إلى وعي آخر، إلى عالم آخر، وإلى لغة أخرى، ولكن الواقع العربي يقف في محطة انتظار أخرى، لعل السادات يعود من الساعات الأخيرة في الإسماعيلية بعد نشوب خلاف مفاجىء، شخصي أو قومي، مع بيغن. ولا يعود. ولا يذهب المتفرجون إلى الرصيف المعاكس. ففي محطة انتظار ثالثة، كان الواقع العربي ينتظر عودة السادات من اللحظات الأخيرة في كامب ديفيد. وحين نكث بالوعد ولم يعد، أخذ ملوك النفط والصمت المبادرة، وتوجهوا إلى القاهرة لشراء احتمالات وطن في السادات. لا شيء، والآن ماذا ينتظر الواقع العربي ليطور الحد الأدنى من الرد على الحد الأقصى من الصد؟ ألعل الدقائق الأخيرة في بلير هاوس تعيد إلينا السادات، وهو الذي يعلن كل يوم، كمذيع ثرثار في راديو الجيران، إنه قطع أكثر من تسعين في المائة من طريق الصلح مع إسرائيل، ووصل إلى نقطة اللاعودة؟.

إنه يقف، أو يريد أن يوقفنا، أمام أكداس من التفاصيل. الربط.. الربط. مرة ربط الضفة الغربية وقطاع غزة بالمعاهدة. ومرة ربط غزة وحدها. وفي كل أنواع الربط التي تفترض غياب الإرادة الفلسطينية، لا معنى للربط إلا محاولة ربط الجميع بعربة المعاهدة، لكي لا يكون الاستسلام جزئياً. ولكي تكون هزيمة حاكم واحد تعبيراً عن هزيمة أمة.

إن كل هذه المباراة الدائرة في واشنطن لا تغير طبيعة ما يجري، واتجاه المسار الذي توغلت فيه السياسة المصرية في تحولها إلى أداة في

الاستراتيجية الأميركية. هل بقيت هنالك حاجة للبرهنة على أن عودة سيناء لا تجري ضمن عملية السلام الذي لا يستطيع الاحتفاظ بماهيته إلا إذا تأسس على الشرط الفلسطيني؟ لأن أية عملية لصياغة السلام في الشرق الأوسط ستحمل طبيعة نفي السلام إذا لم يتح لمحور الصراع على هذه الأرض إمكانية التعبير عن شروطه.

وأكثر من ذلك، إن سيناء لا تعود أيضاً ضمن عملية التسوية السياسية التي من شروطها أن تعكس توازن القوى بين أطراف الصراع العربي - الإسرائيلي، لأن حجم الهزيمة السياسية والحضارية الذي يتقدم به السادات، مفاوضاً، أكبر بكثير من وقائع القوى على أرض الصراع، هذه الوقائع التي تتيح للعرب حداً أدنى من تحقيق مطالبهم: الإنسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧، وإقامة دولة فلسطينية مستقلة.

ما حدث طيلة عام كامل من عمر الزيار المعبرة عن محصلة انعطاف في الدور المصري في ادارة الصراع يتجاوز، إذن، شروط السلام الكامل، وفي مقدمتها مفهوم السلام الفلسطيني، ويتجاوز أيضاً شروط التسوية السياسية، ليضع السياسة المصرية في صف التصدي لمقومات الحياة العربية. إن الإسرائيليين، أنفسهم، أقل اندفاعاً من السادات نحو التفاؤل، فإذا تجاوزنا مظاهر البكاء اليهودي التقليدي، والذكريات الحقيرة التي أقاموها مع مستوطنات سيناء، لادركنا أنهم لا يعتبرون ما يجري عملية لإحلال السلام. إنهم يسمونه سلاماً جزئياً مع مصر. «هآرتس» مثلاً: «لقد تم شراء السلام المصري الإسرائيلي بالإنسحاب من سيناء مما يتيح لنا إمكانية توطيد سيطرتنا على الضفة الغربية وقطاع غزة. لقد حققت الصهيونية الدولة بالتوسع. والسلام مع مصر يوطد هذا الانجاز. وعلينا أن نعترف بأن السلام الجزئي ليس سلاماً حقيقياً».

لا يخفي أحد من المسؤولين أو المراقبين الإسرائيليين طبيعة هذه العلاقات الخاصة مع مصر. إنها أخراج مصر من معادلة القوى العربية، مما

يمكن إسرائيل من احكام السيطرة والثبات في الأراضي العربية المحتلة. وإن الاختلاف في صفوفهم هو حول مدى استعدادهم لمساعدة السادات على تزيين الحل المنفرد بروابط توحي للآخرين بوجود حل شامل، يشمل الموضوع الفلسطيني، مما يخفف الضغط العربي على مصر. إن البعض الإسرائيلي يريد إنقاذ السادات [وربما أميركا] من الحرج العربي. وبعضهم يريد أن يسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية ويطمس كمائن الإغراء الأميركية التي تدعو العرب للسير في طريق كامب ديفيد لضمان انسحابات إسرائيلية، لا تريدها إسرائيل. ولا يكف رئيس الحكومة الإسرائيلية عن التعبير عن «نوبة الأبد» التي اصابته رداً على حاجة مصر إلى الربط وإعطاء العلاقة الثنائية صفة الشمولية. «الجيش الإسرائيلي، استناداً إلى كامب ديفيد، سيبقى في الضفة الغربية وقطاع غزة إلى الأبد». و «لن تتخلى إسرائيل عن القدس، وهي عاصمتها التي توحدت إلى الأبد». و «سنواصل الاستيطان اليهودي إلى الأبد».

لم يشفق بيغن على نائب السادات الذي يلهث وراء أي رابط يربط أي شيء بشيء آخر، والذي قال في حديث خاص مع صحيفة «يديعوت احرونوت» الإسرائيلية معاتباً: «إننا نتعثر بقضايا صغيرة. ما هو وجه الخطر في بضعة رجال شرطة وبضعة رجال مراقبة حدود؟ لا نريد أن تكون لنا سيادة في غزة. ولكن، هل مكتب اتصالات مصري سيفسد الأمر كله؟ مم تخافون؟ إن وجودنا هناك في غزة سيساعد في المحافظة على النظام في مواجهة منظمات الفدائيين والإرهابيين والمظاهرات».

اسوأ من ذلك، إن الواقع العربي ما زال يقدم تعابير على انتظار عودة السادات المحروم من «شرف» قمع المظاهرات الفلسطينية في غزة، والعاجز عن ممارسة حقه الإنساني في إخراج خيانته بزي حسن. فالإسرائيليون الساديون التدميريون لا يريدون، على ما يبدو، إغراء العرب بإمكانيات كامب ديفيد منقح، لأنهم لا يريدون سلاماً لا مع مصر ولا مع العرب. إنهم يطالبون السادات بالتوقيع على سحق مصر ليتسنى لهم تحسين

شروط حروبهـم الشـرقية . ومـن الجائـز أن يكون الاضطهـاد الإسرائيلـي للسادات موجهاً لقمع احتمالات انتظار عربي بتصحيح بعض البنود في كتاب كامب ديفيد بحيث تتسع لمخاطر التجربة . فمتى ينتهي الإنتظار؟ .

موجة في النيل

يوم عادي في حياة القاهرة . .

يصحو الخبز قبل الناس ويفلت، ليبدأ السباقُ اليومي في معركة الحياة البسيطة . كأن الرغيف وُلد قبل الإنسان .

وفي التواءات الموّال الذي ينام متأخراً ويصحو قبل الجميع ، تحاسب مصرُ أقدارها . وتكون الشمس قد طلعت دفعة واحدة . تلتفُ الأرضُ بالجسد، فلا تعرف كيف يبدأ العناق وكيف يتحوّل إلى عراك .

يوم عادي في حياة القاهرة . .

إنه اليوم العادي الذي لا يتغيّر إلى درجة لا تعرف منها ، وأنت تنظر إلى أبد الأيام ، هذا النيل ، إن كان يقف أم يسير . وعندما تتسلّل الريح الهادئة من مكان ما في القلب ، لتفتح موجة أو تجاعيد في هذا الجسد المائي المصقول ، فإنك لا تعرف إلى أية جهة يسير هذا الجسد من الأزل إلى الأبد .

إنه اليوم العادي الذي لا يغيّر ضجرَهُ غيرُ هذا الشجر الذي ينام أخضر ، ثم يصحو حاملاً قبعة حمراء من الأزهار الاستوائية . تسأل أحد المارة ، ما اسم هذا الشجر؟ فيجيبك بازدراء : إنه شجر . .

وهو اليوم العادي الذي يتأهب لتحويل وُجهة الأيام كُلّها ، عندما تتكوم الأيام على الأيام وتختنق من الصبر الطويل ، فتخرج الوجوه من الجدران

والأزقة وتتحول المدينة إلى بحر. إذا كان النهر لا يفيض هذا العام، فإن الناس هي التي تفيض. ولا تكون انحناءة السجود التقليدية إلا شكلاً لقوس توتّر.. توتّر كثيراً وانطلق.

هكذا هي مصر. تحبس، تنحبس ثم تنبجس بلا طقوس. لم تعد تفتدي النهر بالعرائس، بل تقبض على الفراعنة الجدد، كما تقبض على الحشرات، وتقذف بهم إلى سلّة المهملات..

إنه يوم عادي في حياة القاهرة، يومٌ لا يُلهم حتى بنكتة، يوم مُعَدٌّ للنسيان ولو كان طوله عشر سنوات حدّده خداع البَصَر..

هكذا هي المدينة العملاقة، مدينة النيل والمآذن والقباب والناس التي تتشابه أسماؤها كما تشبه الشمس ذاتها. هكذا هي القاهرة في لعبة خداع البصر مع كافور وبيغن وسائر سلالة الضآلة يظنونها مفتوحة بلا أسوار. ولا أحد منهم يعرف.. لا أحد.. كيف تنصب شراكها البيضاء، وكيف تحوّل خيوط الضوء إلى سلاسل، وخيمة الليل إلى قفص..

مصر!

واصلي يومك العادي الذي يبدو لنا طويلاً ولكنه أقصر من موّال فلاّحة!.

لك الزمن، ونحن أسرى اللحظة

مصر!

ماذا يعنيك من أحزاننا السريعة

مصر!

إن صوتنا لا يصل، وصمتنا أيضاً لا يصل..

* * *

وهو يوم عادي من حياة القاهرة..

ـ هل حدث هذا من قبل؟

● لا. لم يحدث في تاريخ مصر الحديث ولا القديم.

- ولماذا لا تخرجين إلى الشرفات لتشهدي الهزة الأرضية؟

لا تخرج. لأنها لا تصدِّق أن شيئاً ما قد حدث.

إنه يوم عادي.. عادي في حياة القاهرة:

الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً..

صباح الاثنين ١٨ شباط (فبراير) عام ١٩٨٠..

- ألم تشاهدي شيئاً؟

● لا. هل مشى النخيل؟

- لا.

● هل تغيَّر القلب؟

- لا..

● إذن، ماذا حدث، لماذا تدعوني إلى البكاء وقد شرقت دموعي بدموع أطفالي الذين ينتظرون الخبز الهارب.

- «لأن الوطن في خطر»؟

● وما هو الوطن.. وما هو الخطر؟ هل كان لي وطن ليتهددني خطر؟..

- أين كانوا يموتون إذن!

● في البيت، قرب الترعة، في ازدحام الباص، في السجن، في البلهارسيا، وفي مخافر الشرطة.

- وعلى حدود الوطن.. في سيناء مثلاً؟

● كان فائض الموت يُستثمر في سيناء.

- سيدتي! هل أنت عربية؟

● هذا سؤال لا يُسأل. ولكنك لم تقل لي: ما هو الوطن؟ هل تعني المزرعة أم الشركة أم المقاولين؟

- أعني الأرض، والكرامة الإنسانية، والحقوق.

● لا. ليس لي وطن..

- ألا يعنيك ما يحدث في شارع محيي الدين أبو العز؟

● أين هذا الشارع؟

- في الدقي.

● آه.. الدقي.. حي الخواجات.. تلك ليست، بلادي لأني لا أعرفها.. تلك بلاد الرئيس.

- أليس هو رئيسك. ألم تنتخبيه؟

● جاء رجال المباحث. أعطوني ورقة وقالوا ادخليها في الصندوق، ففعلت.

- وصار رئيساً للجمهورية.

● من هو؟

- شخص اسمه السادات.

● ماذا يشتغل هذا الشخص؟

- يشتغل رئيساً للجمهورية.

● وأنا مالي وماله. من فضلك أنت تؤخرني عن شغلي.

- ماذا تشتغلين؟

- في تنظيف البيوت. راتبي الشهري ٥ جنيهات وأولادي عشرة...

* * *

يوم عادي في حياة القاهرة..

١٨ شباط (فبراير) ١٩٨٠.

الساعة الحادية عشرة إلاّ ربعاً من صباح الاثنين.

يدخل بعض العمال شارع محيي الدين أبو العز في حي الدقي. يصلون إلى أحد البيوت. يقفون. يثبتون لوحة برونزية تحمل اسم «سفارة إسرائيل» باللغات الثلاث حسب الترتيب: العبرية، العربية، الانجليزية. ويعودون إلى مطاردة الخبز في مكان آخر.

يخرج رجل اسرائيلي اسمه يوسف هداس من شرفة البناية برفقة زوجته. يحرّك حبلاً مربوطاً بسارية، فيرى كيف يطلُّ علم اسرائيل ذو اللونين

الأزرق والأبيض على سماء القاهرة. يصفق حوالي مائة شخص من السياح اليهود القادمين من الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا وبعض أفراد الجالية اليهودية في مصر. يصفقون ويشعرون بأنهم شهود على حدث تاريخي... على عملية استرخاء الصهيونية، في أمان، على الجسد العربي.

يطلٌ بعض جيران البناية من شرفاتهم على الضجيج ولا يعبرون عن شيء. رجال الشرطة والمباحث يملأون الشارع. ست عربات نقل محمّلة بالجنود وقفت في أحد الشوارع الجانبية لحراسة الطريقة التي تغتصب بها مصر، دون أن يلاحظوا أن المغتصبة لم تكن هناك. كانت في الشارع الموازي على ضفة النيل، كانت في غرفة السادات وحده. الاسرائيليون ينشدون نشيد «هتكفًا» (الأمل):

«لا يخيب أملنا
في أن نكون شعباً حراً في بلادنا
بلاد صهيون
أورشليم».

تُسمع صرخات احتجاج تطلقها فتيات عربيات من بناية الطالبات المجاورة، يندفع رجال الشرطة ويعتقلون الاحتجاج.

تصرخ فتاة: إنه يوم أسود يا أبي...

يمرٌ عامل مصري مصادفة في الشارع. يشاهد علماً غريباً. يسأل: أي علم هذا؟ يقولون: علم اسرائيل. يقول: هذا لا يجلب السلام... هذا لا علاقة له بالحمام... هذا غراب في المدينة. ويذهب لمطاردة الخبز من طريق آخر.

يقف الرجل الاسرائيلي ويعلن أنه يتطلع إلى أن يرفرف علم نجمة داود في العواصم العربية الأخرى.

يمشي الصوت. يكبر الصدى. يخدش حياءنا. فنهزمه بالصمت!

يواصل الرجل الاسرائيلي خطابه المكتوب بلغة عربية، سليمة، ليوحي

لنا بأن «الضاد» أيضاً تحمل المعنى الصهيوني ولا تشكّل مناعة كافية: «إننا نأمل في التغلب على العقبات في طريق السلام الشامل، لأنه لا يمكن لأحد أن يتجاهل ما يحدث اليوم». ماذا يحدث اليوم يا يوسف هداس؟ . يقول: «مجرد خطوة واحدة في طريق السلام بين اسرائيل وكافة الدول العربية».

يرتفع الصوت. يكبر الصدى. يدق جرس الانذار. يخدش حياءنا، فنحتقره بالصمت. .

ولكن مدن الضفة الغربية تواصل يومها العادي. . تتظاهر. تعلن الاضراب. تقاوم الاحتلال. يترك الطلبة دفاترهم ويذهبون إلى الدرس الحقيقي: حرب الحجارة. ويواصل الاحتلال يومه العادي: يغلق أبواب غزة. يعتقل. يعذّب، يشوه الأجساد. يفرض الإقامة الجبرية على رؤساء البلديات.

يمرُّ مواطن مصري مصادفة في شارع محيي الدين أبو العز يسأل: ما هذا؟ يقولون: سفارة اسرائيل في القاهرة. يقول: إنه يوم حزين يضاف إلى أيامنا الحزينة. ويمضي لمطاردة الخبز في مكان آخر. . .

يواصل الرجل الاسرائيلي خطابه: «منذ هذه اللحظة صار لاسرائيل بيت في القاهرة. وفي غضون أيام قليلة سيصبح لمصر بيت في إسرائيل». ولكن السادات يقول إنه لا يعترف بأن القدس عاصمة اسرائيل، لذلك سيذهب سفيره «الذي لا يشعر بالحرج» كما قال، إلى القدس ليسلّم أوراق اعتماده لرئيس الدولة الصهيونية المقيم في القدس! . ولكن السادات قال إنه لا يعترف بالقدس عاصمة! .

* * *

يوم عادي في القاهرة وفي الوطن الكبير. البيت الاسرائيلي هناك لا يدهش. الصلح المنفرد يُعالج بالصلح الشامل، يُعدَّل: يُنَقَّح ويعود الخائن إلى بيت الطاعة الذي يتّسع للجميع. لم لا تقود اسرائيل هذه الحملة الايديولوجية إذن؟ . لا يشعر الكثيرون بالحرج حين يذكرهم السادات بأنهم

يتبعون خطاه العملية ويعترضون على طريقته السينمائية، فالسؤال يضيق ويحاصر ليصبح: أيّ الحرس أجدى لأميركا!

وفي احدى استراحاته الكثيرة يدلي السادات بتصريح للتلفزيون الايطالي: «أعتقد أن الصراع العربي ـ الاسرائيلي لم يعد هو القضية الكبرى، بل إن السؤال هو: وماذا عن تحركات السوفيات! . . من هو القادر على أن يبعد عنه هذه الكأس؟ ومن هو القادر على النجاة مما يصيب الجسد الكبير من انهيارات؟

ينتهي الاحتفال يبدأ الصمت الطويل.

ينتهي اليوم العادي، وتذهب مصر لتهيىء مفاجأتها، لتبدع اليوم الكبير الذي يبدأ بمليون علم فلسطيني في القاهرة . .

تخرج «الكترا» المصرية من سجنها لتصرخ في وجه الحاكم القاتل:

«أتظن أنني من ذلك النوع الذي يمكن أن يقال له: إذا كذبت وتركت غيرك يكذب ستظفر بوطن سعيد؟ وإذا اخفيت الجرائم فإن وطنك سينتصر؟. ما هو هذا الوطن المسكين الذي تدسّونه. بغتة بيننا وبين الحقيقة؟».

سيقول لها الحاكم القاتل: «إن الوطن في خطر».

ستقول الكترا المصرية: «نحن نختلف في معنى الخطر»، فما هو خطر عليك هو خلاص الشعب.

سيحدث الانفصال الأخير بين الشعب والحكم . . .

وتطلق الكترا العربية صرختها الكاملة:

«ليس لأحد الحق في إنقاذ الوطن إلا بيدين طاهرتين» . . .

هزيمة الانتصار

لا ننظر إلى الوراء لنرى الليل الذي ساقونا إليه، يوم كنا صغاراً ووحيدين، ويوم انتصب لاستقبالنا نصف مليون خيمة مطرزة باللغة الفصحى وأناشيد السيوف والرماح. كانت السلطات الكريمة التي فتحت لنا المنافي على رحبها، باعتبارها بيوتنا المشتركة، هي التي أمنت لنا الإقامة السعيدة على حافة الوطن وعلى حافة الأمة. وهي التي أحكمت سياج البنادق المصوبة على خطانا التي حاولت التحرك في اتجاه العودة أو في اتجاه العروبة. كان كل واحد منا يسأل: هل أنا العربي وحدي؟ أو يتساءل: هل أنا الفلسطيني وحدي؟. وفي السجون الإسرائيلية كنا نعلم كم صرنا عرباً. وفي السجون العربية كم صرنا فلسطينيين. ولم نكن هنا، أو هناك. نحمل عبء الأرض وحدها، كنا نحمل عبء الاسم.

وبعد ثلاثين عاماً من جدل الحضور والغياب الذي يسجل فيه الحضور الفلسطيني لغته الحاسمة، على حساب استقرار اللغة الصهيونية في غياهب الماضي، تحاول الرجعية العربية، ذات الصفات المملوكية، العودة بنا إلى الأسئلة الأولى وإلى الذكريات الأولى: استبدال الصراع العربي - الإسرائيلي بنقاط خلاف تنصب فيها الإمبريالية حكماً. وتغييب الأمة عن ساحة الصراع. واستبدال الأمن القومي، أو حتى الوطني، بالأمن الاجتماعي الذي يعني في ظروف أغلبية الكيانات العربية مزيداً من قمع الكادحين لتأمين

تضخم الطفيليات، وحرمان المواطن من التساؤل عن مستقبل الرغيف وعن مصير الوطن.

إن أشياء كثيرة تنتهي.

وان شيئاً ما جديداً . . سيبدأ

ومن لا يذكر الخامس عشر من أيار، سيستقبل الخامس من حزيران غداً. ومن لا يذكره سيواجهه، بعد حين، كارثة التفريط بنتائج السادس من تشرين. والسنة العربية الرسمية مليئة بمزيد من الانقلابات على التاريخ وعلى الذات، وبآيات لا تنتهي على المهارة الفائقة في جعل الهزيمة هدفاً سهل المنال، وفي تقديم الشروط الدائمة لانتصار الهزيمة.

هكذا يتبخر التضامن العربي. وهكذا تأتي الذكرى الثلاثون للخامس عشر من أيار ليجد المصير الفلسطيني نفسه محاصراً بمهمات الدفاع عن النفس أمام الهجوم المضاد الذي تشنه الرجعية على القوى الثورية والديموقراطية العربية، مستبدلة مهام تحرير الأرض العربية المحتلة، بتطهير أرض العرب وأفريقيا من فكرة الثورة ومن فكرة الديموقراطية ومن محاولات التحول الاجتماعي، لنشهد على ميلاد طراز فريد من الفاشية العربية، المحمية بالطائرات الأميركية.

ويجد المصير الفلسطيني نفسه، من ناحية أخرى، يواصل صراعه التاريخي مع العدو الصهيوني محروماً من مساندة عناصر التأييد العربية المعرضة للملاحقة والتفتيت. وهكذا يتبخر التضامن العربي من حول فلسطين ليتحول البحث عن صياغة تضامن القوى الوطنية والديموقراطية إلى شرط حياة لفلسطين وللديموقراطية، لكي يتمكن الحضور الفلسطيني المنجز على مستوى جدل الحضور والغياب الدموي مع العدو الصهيوني إلى حضور ثابت وغير قابل للخلخلة على مستوى العلاقات العربية.

لقد تجاوزت الثورة الفلسطينية مراحل الخطر في صراعها مع العدو الصهيوني. وأكثر من ذلك: إن هذا الصراع الذي يخوضه الشعب الفلسطيني

بشجاعة وعطاء نادرين هو الذي جعل الشخصية الفلسطينية الجديدة شرط السلام أو الحرب في هذه المنطقة الحيوية من العالم، وهو الذي جعل محاولات الفصل بين القضية والشعب والثورة مستحيل الإدراك. ومع ذلك، فإن المفارقات تطل بألسنة ساخرة: هل تستطيع الرجعية العربية، باجتياحها الصحراوي المملوكي الفاشي، في محاولة الاستيلاء على رياح الشرق، أن تنجز مهمة تغييب فلسطين الثورة - لا فلسطين المسجد الأقصى - عن حلبه الصراع المفتوح، أو هل تستطيع أن تلجم الصراع، وتصون الأمن الصهيوني الذي صارت عملية الانقضاض عليه انقضاضاً على أمن الرجعية بما تخلق هذه العملية من تغيير في التوازنات والموازين ومن فتك بأمن الطبقات الحاكمة؟.

إن الصراع المفتوح على المستوى الوطني وعلى المستوى الاجتماعي، وبعد مسيرة ثلاثين عاماً من التغير العميق، غير خاضع لرغبة أمير أو ملك جديد عجز عن حل أية قضية من قضايا الوطن وقضايا الحكم. وإذا كانت الحركة الصهيونية قد عجزت عن وأد الفلسطيني والفكرة الفلسطينية في المهد، فلن يتمكن من تشبه بها أن يعود بالحضور الفلسطيني وبحركات الجماهير العربية الواسعة الملتفة حول المسألة الديموقراطية والفكرة الفلسطينية إلى الوراء.

أرادوا أن يكون الفلسطيني غائباً عن أرض فلسطين، ليتأسس المشروع الصهيوني في مناخ الشرعية. وغائباً عن ناموس العلاقات العربية لكي لا يسرق حقاً أو لكي لا يذوب ولا تذوب القضية فلا يجد الانقلابيون افتتاحية للخطاب. وغائباً عن الحرب الرسمية، لكي لا ينال جدارة أو نتيجة. وغائباً عن السلم لكي لا يضع شروطه.

ولكن الحاضر يحضر والغائب يغيب.
وان أشياء كثيرة تنتهي.
وان شيئاً ما جديداً يبدأ.

وسيظل المشروع الصهيوني هو العدو الرئيسي للشعب الفلسطيني

وللأمة. وان قراءة ما فشل هذا المشروع عن تحقيقه في مهمة تصفية نقيضه التاريخي المباشر تشكل حجر الزاوية في مراقبة الأزمات وآفاق تخطيها، على الرغم من أننا لن نجد القوة الأساسية التي يتحلى بها هذا العدو في مقوماته الذاتية ولا في مصادره الامبريالية، بقدر ما نجدها في ضعف الكثير من عناصر الجبهة المرشحة لمحاربته وهي الجبهة العربية.

هل نجح المشروع الصهيوني؟ سؤال صعب، يرد عليه الصراع المفتوح للاحتمالات والحسابات التي ترجح ـ على المستوى النظري ـ حتمية انتصار الأمة العربية التي تمتلك شروط النهوض والتطور والتحرر، بينما تعج الظاهرة الصهيونية بكل عوامل الانكماش والتحجر، إذا نظرنا إلى الصراع من منظور صراع الأمة العربية مع الإمبريالية. ولكن التفاعل المتبادل بين المشروع الصهيوني والرجعية العربية والذي يتمثل بمد أحدهما الآخر بالحياة يصرف الإجابة عن السؤال إلى جدلية الصراع في الداخل العربي دون أن يحرمها من استيعاب قدرة العامل الخارجي من التأثير في هذه الجدلية. وسيكون من التبسيط أن تعفى العلاقة الصهيونية ـ الرجعية العربية من عوامل التناقض في المصالح، وإن كان هذا التناقض لا يفتك بالاستنتاج القائل ان طول عمر المشروع الصهيوني رهن بانتصار الرجعية العربية، وأن طول أمد الرجعية رهن بقدرة المشروع الصهيوني على الانتصار.

هل نجح المشروع الصهيوني؟ سؤال صعب أيضاً تجيب عليه ـ على المستوى العملي ـ حرب الثلاثين سنة التي لم تقدم للعرب إمكانيات تحقيق وحدتهم التي يقتضيها الاحساس بالخطر المشترك وبالمصلحة المشتركة، وانتهت في العقد الرابع للصراع بانقلاب خطير في الاستراتيجية تحول فيه الأصدقاء الحقيقيون إلى أعداء، وتحول فيه الأعداء إلى منقذين، وصار العجز عن إدارة الصراع بعقلية جديدة صفة الأيام العربية الراهنة.

ولكن حرب الثلاثين سنة لم تقدم ـ على المستوى الإسرائيلي ـ حل مشكلة العمر اليهودي الضائع. لم يتمكن اليهود من التحول إلى سكان شرعيين في المنطقة. ولم يتمكنوا من صياغة حياتهم الطبيعية. ولم يتمكنوا

من تحقيق سلام مع أحد. ولم يحققوا استقلالهم المستحيل. كان عيدهم الثلاثون أمس شراً من جنازة، فلم يعد أحد منهم قادراً على القول أن فلسطين لا وجود لها. وان الفلسطينيين من هم؟ لا نعرف أحداً بهذا الاسم، كما كانت تقول رئيسة وزرائهم السابقة. على العكس من ذلك، كانت حربهم الخامسة ـ عشية عيدهم الثلاثين ـ مع هذا الشبح الفلسطيني الذي حارب أحدث طائراتهم ودباباتهم لمدة ثمانية أيام في جنوب لبنان، دون أن يتمكنوا من خدش حضوره الساطع في يومياتهم وفي مستقبلهم الذي يدفعه هذا الحضور إلى الغياب.

إن المنطق الإسرائيلي هو الذي يلغي الوجود الإسرائيلي باشتراطه حضوره بغياب الفلسطينيين. لقد حضر الفلسطينيون ولم تكن الطائفة اليهودية تحارب الصحراء والأشباح. لقد حشد الفكر الصهيوني نفسه بمقولات خلاء أرض فلسطين من السكان. ونجح المستوطنون اليهود في إخلاء مناطق واسعة من أرض فلسطين من السكان. كانت دير ياسين وكفرقاسم شرط حياة الكيان الصهيوني، كما كانت مذابح النازية الشرط ذاته ـ كيف يصير اليهودي نازياً، تماماً كما يصير العربي صهيونياً ـ ولكن لإنجاز المشروع الصهيوني والقيام بدوره الذاتي ودوره الصليبي شروطاً أخرى هي المزيد من الأرض. لم تكن الأرض خالية، فلم يتمكن الفكر الصهيوني والواقع الإسرائيلي من التعامل مع الفلسطينيين على أساس أنهم غائبون. لقد استحضرهم التوسع في الوعي وفي الصراع.

لا. ليس صحيحاً القول أن المشروع الصهيوني قد خلق نقيضه الفلسطيني، فإن هذا النقيض موجود قبل المشروع وهو الذي يعرقل صيرورة المشروع إلى ثبات، وهو الذي يستقطب اللحظة الثورية العربية، ويغذي الأمة بنبض المواجهة.

هل نجح المشروع الصهيوني إذن؟ على المستوى الإسرائيلي الذاتي، لم يكن تاريخ المشروع تاريخ بناء دولة، إطاراً لتطور شعب يمارس حريته وحياته وإبداعه الحضاري. إنهم مشغولون بعرقلة حياتنا، فلا يستطيعون

تطوير حياتهم . مشغولون ببناء هيكل الخوف النفسي والجسدي وعاء وحيداً لتوحيدهم . لقد كان تاريخ المشروع ولا يزال تاريخ بناء جيش . اسبارطة جديدة لا قيمة للإنسان فيها إلا قيمة الإعتداء . وخارج هذه الصيرورة لم تفعل الطائفة شيئاً ذا شأن غير بعث اللغة . وهكذا كان « تحررها » نضالاً قاسياً لاختيار العبودية . فيبقى السؤال عن النجاح أو الفشل محكوماً بمعايير الآخرين . أما في شروط الغزو فيبقى السؤال متأرجحاً على موازين القوى .

وخارج هذا الشرط يرد السؤال الصعب : هل « تحررت » الطائفة اليهودية على أشلاء فلسطين التي لم تعد اشلاء؟ قد يقولون انهم تحرروا من المنفى ، فأي وطن هذا الذي لا يشبه ميدان قتال آخر . لقد جمعوا « منافيهم » في منفى واحد مسدود النوافذ على الجهات كلها إلا جهة الانتحار . وقبل ذلك وبعده ، هل يصلح مثل هذه الأسئلة للطرح على الصهيونية خارج عناصرها العدوانية والتدميرية؟ لا . فأي كيان هذا الذي تجري محاكمته ضمن منظور عادي وخارج ساحة الصراع ! . وأي مستقبل ـ حل يصوغه هذا الجندي المدرب في حرب بلغت ثلاثين عاماً ولم تتوقف؟ . ليست الحرب هدفاً إلا للمنتحرين .

ويأتي الحضور الفلسطيني النقيض الذي كان غيابه شرط حياة الكيان الصهيوني ليحول الأسئلة إلى مصير . لا يأتي الفلسطيني من الصفر ومن الليل السري والبحر الغامض . إنه يأتي من أرض إقامته ومن الحق ومن نهوض الأمة الكبيرة ومن مستقبلها . ان تطور الشخصية الفلسطينية النقيض لتحالف الماضي هو الذي يحدد وجهة المستقبل ، على الرغم من امتلاء اللحظة العربية الراهنة بمظاهر العودة إلى الماضي . لقد انقسم العرب لأنهم منقسمون منذ البداية إلى قوى متعارضة في المصالح الاجتماعية والوطنية . وقد آن الأوان لأن يوقى الرجاء العربي من إغراء الكم واحتمالات الضغط على الامبريالية بالثروة التي هي ليست لنا ، فها هي تعلن عن وجهها وتبذل كل شيء من أجل أن تعطى دوراً أميركيا أفضل في مكافحة الثورة . ومن أجل أن تنجز « التسوية الاجتماعية » الداخلية شرطاً لإقامة علاقات طبيعية مع العدو .

ونحن لا ننظر إلى الوراء لنرى الليل السابق، والحصار الراهن، بل لنرى التطور المذهل الذي حققته مسيرة تبلور الشخصية الفلسطينية المقاتلة على كل جبهات الصراع، ولنرى المأزق الذي يضع الحضـور الفلسطيني عدوه التاريخي فيه، حيث يجعله عاجزاً عن توظيف انتصاراته العسكرية، ويعطي للنصر الصهيوني صفته الحقيقية « هزيمة الانتصار ». ونحن، لا ننظر إلى الوراء لنرى الليل الذي ساقتنا إليه الصهيونية والرجعية، يوم كنا صغاراً ووحيدين، بل لنرى نقطة الضـوء المتناسلة في المـدى العربـي الواسـع، ولندرك أن المأزق الذي يسم الوقت العربـي الراهـن بالعجـز، ليس مأزق الجماهير والأمة، بل هو مأزق الحكام الذين انتصرت عليهم الهزيمة.

إن أشياء كثيرة تنتهي.
وأن أشياء كثيرة تبدأ.

ربيع الدكتاتور
خريف الغضب

كان لا بُدَّ للدكتاتور من السقوط عن المنصة، على مرأى من جنوده، وعلى شاشة التلفزيون التي يعبدها، ليتمكَّن الكاتب من وضع الفصل الأخير من كتاب العمر: «خريف الغضب».

لم يَسْلَم أحد منا، نحن أبناء الجيل الذي رأى عكس كل شيء، من إنهيار ما في المعنى وفي الروح، ومن صَدْمَةٍ ولادةٍ ما نحتاجها في خطوة مجهولة على طريق واضح.

نتخبَّطُ في الحلم وفي الانقاض. نُبَدِّل الآلهة التي نحتاج إليها لنتوازن. نَضَعُ الكرة الأرضية أمامنا في الزنزانة. نُثْقِبُ ما يُثْقَبُ لننفذَ إلى سؤال الوجود الكبير، الذي يحدِّده سؤالُ البيت الصغير، سؤال السؤال: لماذا نقفُ في تاريخنا، خارج التاريخ؟

وبين الكاتب والدكتاتور ـ من هو هذا، ومن هو ذاك؟ لأن لكليهما آخرَهُ، وفيه أيضاً حاله ـ توتُّرُ العلاقة التي لا ترسو إلاَّ في انتحار الآخر، وفي سقوطه، وهو في ربيع البطش.

سَمِّ الدكتاتور ما شئت، فهو حالُ شهوة أو رغبة مكبوتة ومتفجرة معاً، لا تثير فينا من تعبير الغريزة إلا ما ننعته به: عادلاً أو ظالماً، إذن نحن في هذا الشرق الجميل، بشمسه وامتثاله، وتاريخ آلهته، قد اعتدنا، وبقابلية غريبة

على الطاعة الحرة، ألاّ نعتبر «الدكتاتور» نعتاً، لأنه حالٌ نهائية، مقبولة، شعبية، تاريخية، مُسَلَّم بها كأنها قدر أو واقع موضوعي.

إنَّ صِفَةَ هذه الصفة هي التي تردُ إلينا الانتباه: ظالم أو عادل! . هل تلاحظ إلى أين وصلنا نحن عُشّاق، أو عبيد، الفصل الأخير من أي شيء، من أي تاريخ، أو أرض، أو سياسة، أو قصيدة، أو طباع رجل؟

هكذا يحبُّ الكاتب الدكتاتور. يرى فيه القدرة على التغيير الشامل، أو النشيد الشامل؛ العملية الجراحية الكبرى في روح الأمَّة وفي انغماره في ورق أبيض، وفي كينونة بيضاء إذا مَسَّهما حبرُ الإلهام غَيَّر، سواء أكان الورق للكتابة أم لتسجيل قرار الحرب والسلام.

كأنه يقول: الدكتاتور الجميل هو أنا في سُلْطة لغتي، التي تتحول في شبيهي إلى مصانع، ودبابات، وسجون، تقنع خصوم لغتي بإعادة النظر. والدكتاتور القبيح هو ذلك الرجل الجالس على عرش بشع لا يشبهني في شيء.

الكاتب لا يحب الدكتاتور إلاّ بقدر ما يحرِّكه، وبقدر ما يجد فيه ترويجاً لأحلامه الخاصة. قد تكون هذه الأحلام الخاصة استقطاباً لأحلام جماعية، عندئذ يتم التطابق أو التصالح بين النار والماء، بين ما هو فردي وما هو جماهيري. ويصبح من واجب الحقيقة أن تضيع في زحام العواطف الجميلة. وتُساقُ الأمة إلى الطاعة المختارة بجنون المبدعين، الذين يتصورون أنهم صاغوا قرار الحاكم.

عَمَّ نبحث؟

عن جمال اللحظة العسكرية، حين نمتحن الأمة صدق تاريخها، وسلامة روحها، بنشيد واحد على حدود المواجهة مع عدوّ خارجي، يهدِّد العرش والشارع معاً: إما الحرية وإما الموت ـ هذا هو نشيدنا.

ومن مفارقات الطاعة أن الحرية لا تمتحن إلاّ هناك، بينما الموت بلا حرية شائع في الداخل. كأننا نُسلِّم بأننا لم نولد من أجل الحرية إلاّ على

الحدود؛ على حدود الأشياء. أما الداخل ـ داخل الأشياء وداخلنا ـ فهو ليس لنا. إنه من اختصاص الحاكم، ومن محض شؤونه.

الآن يتمُّ الفراق، أو آن له أن يتمّ. ولعل هذا الفراق هو المناسبة الوحيدة الصالحة لتثبيت الأسئلة على أرض صلبة. فعندما يندرس المكان الذي كان، وحده، امتحان الحرية ـ وهو حدود المواجهة مع العدو الخارجي، ويُسَوَّى بالوحل والمعاهدة، وترفع عليه لافتة تقول: الدخول ممنوع، والكتابة ممنوعة، والتذكر ممنوع؛ وأكثر من ذلك: يصير مزاراً يحج إليه الحاكم الدكتاتور يداً بيد مع عدوٍّ صار صديقاً، بلا سبب، لوضع إكليل من الورد على قبر الصراع والكرامة... عندها تتمرد الطاعة. تنتهي حالة الطوارىء. تمتد الأسئلة كالسهام الجارحة نحو الخبز، والمساواة، والحرية الفردية، ونظام الحكم، وحرية التعبير، وحق العمل. ويتم الطلاق بين الكاتب والدكتاتور.

عندها يقول الكاتب: هذا هو أنور السادات.

وعندها يضع السادات كاتباً كبيراً هو محمد حسنين هيكل في السجن.

وعندها يتقدم جندي مصري، صار عاطلاً عن العمل في صياغة حرية مصر، من منصة الدكتاتور. ويطلق عليه النار.

انتهت أشياء كثيرة في لحظة. وسننتبه بعد قليل إن ما انتهى يصرُّ على البحث عن بدايته الجديدة، لأن الدكتاتور ليس شخصاً. ولكن الذي انتهى، ونريد له أن ينتهي، هو التباس العلاقة بين الكاتب والدكتاتور، وبالتالي انتهى سؤال الحرية المموَّه.

الكاتب يوطِّد دوره: دور الشاهد، دون أن نتساءل الآن عن دور المنخرط منذ البداية في جنين البدائل، التي تنشط خارج النص، نصٍّ السلطة.

لا نتساءل، لأن الانحطاط السياسي الذي بلغ حدَّ تشريع التماثل، أو الالتحام بين الحاكم ـ الدكتاتور، وبين الأرض ـ التاريخ ـ الشعب، حظر

حتى دور الشاهد. أن تشهد على ما يحدث، أن تشهد على ما تعرف، أن تسجِّل الشهادة الباردة والمحايدة، فذلك نوع من الالحاد لا يدفع الكاتب إلى خارج دوره فحسب، بل يدفعه إلى خارج قرائه، الذين حوصرت مصادر وعيهم، ومعرفتهم، بأجهزة اتصال يحتكرها الدكتاتور.

من يستطيع أن يكون شاهداً هو الشهيد ذاته. ولذلك، فإن من يثيرون هذه العاصفة الأخلاقية، الدينية، على شهادة هيكل، لا يثيرون إلاَّ ما يجعل سؤال الديمقراطية سجناً. لأن «حرمة الموتى»، التي يؤثرونها على حرية الأحياء، هي دعوة سياسية لإلغاء الكتابة، ولإلغاء كتابة التاريخ، لأن من شروط هذه الكتابة أن تكتمل دائرة السيرة، من الولادة إلى الموت. أي كان على السادات أن يموت لكي يكتب هيكل سيرة حياته. وهذا السؤال الأحمق: لماذا لم يكتب الكاتب كتابه أثناء حياة الدكتاتور؟ إما أنه يحفل بالجهل، وسوء النية المتجه إلى صرف النظر عن الأساس، وإما أنه يدير سؤال الحرية بطريقة تجعل حرية الرأي امتيازاً للسلطان، الذي سيواصل الحكم والتحكم من القبر.

لسنا محايدين في هذه الزوبعة.

فهي ليست خلافاً على وقائع. ولا يعنينا منها تضارب العواطف بين الكاتب والحاكم في مرحلة من مراحل العلاقة بينهما. ولا نتوقف أمام دور يبدو لنا أنه كان سلبياً، لم يقنعنا الكاتب في تبريره، حين ساعد بكتابته، أو بنشاطه الخفي، على إرساء سلطة السادات في انقلاب الخامس عشر من مايو.

ما يعنينا هو الدور التاريخي الذي أُعِدَّ للسادات، وأعد له نفسه بكامل العُدَّة والشبق، من إعادة بناء الداخل المصري حتى العلاقات الدولية، بما يوفر شروط انعطاف الوطن العربي، أو منطقة الشرق الأوسط، في اتجاه معاكس لحركة تاريخها، وللتضحيات والحروب التي خاضتها من أجل صياغة حرية إنسانها، وتحرير أرضها، وبناء مستقبلها المستقل.

لسنا محايدين في هذه المسألة، فهي سؤال عمرنا كله.

إن الظاهرة الساداتية، التي يشرحها هيكل بكل ما يملك من أدوات المعرفة، والتحليل، والمعلومات والمعايشة المباشرة، قد جرَّت المنطقة العربية من سؤال الحرية، والاستقلال، والحلم الجميل، إلى سؤال الفساد والاستعباد الخارجي المباشر، بتحويلها الصراع مع إسرائيل إلى تنافس معها على لعب الدور الأميركي. لقد نقل السادات المسألة العربية في صراعها التاريخي مع أشد معوقات تطورها ـ إسرائيل ـ إلى منافسة اسرائيل، أو مشاركتها، في العملية الأميركية في الشرق الأوسط.

مات السادات دون أن يعثر على جواب للسؤال الأميركي: هل الدول العربية قادرة على مشاركة اسرائيل، بكفاءة، في خدمة الدور الأميركي؟ وهل الوضع العربي مؤهل للانخراط في العملية الأميركية، وهو ـ والسؤال ما زال سؤالاً أميركياً ـ يتميز بالتخلُّف، وعدم الاستقرار، وعدم القدرة على استيعاب التكنولوجيا الحديثة، وحامل بشتَّى الاحتمالات، والمفاجآت، وعوامل التغيير والتفجير؟

ماذا يعني هذا السؤال الكارثة الذي أوصلت الساداتية المسألة العربية إليه؛ السؤال الذي ستتضح مأساويته في منتصف طريق تصعب العودةُ عنه؟.

يعني، في بساطة: أن على الحكم العربي أن يعد نفسه، وطاقاته، وثرواته، لخوض المزيد من المعارك مع ذاته، مع شعوبه، مع فلسطينه، مع طلبته، مع لغته، مع تاريخه، مع أصدقائه، مع رغيف الخبز، مع أحلامه السابقة، لكي يبرهن لأميركا صلاحيته في أن يكون تابعاً لها. أرأيتم كم من جهد يبذله الخادم ليموِّل ارتباطه بسيِّد يفتقد فيه جدارة الخدمة بلا مقابل!

هذه هي لوعة الحكم العربي الباحث عن أب.

لقد قضى السادات عمره ليقول لأميركا فكرة واحدة: إنه، ومصر، والنفط، والأمة العربية، خيرٌ لها من بيغن، وحزب ليكود. قضى عمره وهو يحاول الدخول مع شرق المتوسط في لغة المصلحة الأميركية المعقدة.

والغريب أنه كان يخوض معركة الحب والكسل هذه مجرداً من سلاح الخيارات، وبمزيد من العري المادي والسياسي والأخلاقي. فكلما قالت له اسرائيل: هات، قال خذي وخذي حتى ماء النيل، ولبنان، والتوزيع الطائفي للمجتمع العربي، والعداء المشترك للاتحاد السوفياتي. وكانت اسرائيل تنهب مواقع القوة العربية، وتبلّغ واشنطن أنها، وهي قوية متفوقة، وحدها القادرة على امتصاص الجسد العربي، والفكر العربي. فلولا قدرتها على إخضاع العرب لما نشأت الظاهرة الساداتية. ولولاها، وهي المجتمع العسكري المتماسك المستقر، الذي لا تهدده عوامل تغيير داخلي، لما اصطفّ الوضع العربي في صلاة جماعية أمام أبواب البيت الأبيض. لا ضمان لأميركا، إذاً، إلا الاحتفاظ بوكيل واحد لها في الشرق، هو اسرائيل القوية. أما القضايا الصغرى مثل احتلال لبنان، وضم الأرض الفلسطينية، والجولان، فلا تستحق أن يحسب لها حساب أمام الاعتبار الاستراتيجي الشامل، الذي تتحدث اسرائيل من داخله وفي شروطه.

فهل على العرب، بعد السادات، أن يواصلوا هذه المعركة؟!.

هل سنواصل مشاهدة العبودية التي تلتذُّ بكونها عبودية، لا من باب افتتان المستلب بالسالب وتقليده، بل من باب انفتاح غرائز الشهوة البدائية على ما هو رخيص، ومن باب إيمان مشروط بوقف الإيمان على جمود مراتب تعطي «رب العائلة» الحق الوحيد في الكلام، وفي القرار، وفي التصرف العابث بمصير الوطن؟. ألا يُطرح سؤال الديمقراطية إلا على هذا الجانب؟. أما زال ممكناً أن نساوي بين من باع العائلة، والأرض، والنهر، والأمة، وبين من شهد على ذلك؟

إن الحملة على «خريف الغضب» ليست حملة أخلاقية، لأن السادات يلخص تاريخ سياسة عربية ما زالت متواصلة وسائدة. وليست حرمة الموتى هي ما يثير نقاد هيكل المتكاثرين، بل الحرص على حرية الساداتيين الأحياء، في مصر والعالم العربي، الذين يواصلون دفع المركب الأميركي في دمنا، وفي شتى مستويات حياتنا السياسية، والثقافية، والأخلاقية. فهذا الانحطاط

الشامل في بيت النظام العربي الواحد، نعم الواحد، ليس إلا مظهراً من تجليات الساداتية، أو نتيجة من نتائجها.

والقدح والهجاء؟ لم لا؟!

هل رأى المصري والعربي من المدرسة الساداتية، أو المزرعة الساداتية، إلا ما يستحق الهجاء؟. لِمَ نكون مهذبين في مواجهة هذا النهب المنهجي للأرض والروح والمصير؟. إن رمز الفساد، والانحطاط، وفتح الوطن العربي للاحتلال المباشر، لا يُعاقب الآن بما هو أكثر من تقديم الشهادة عليه. أليست وقائع حياة السادات، وأسرته، وسياسته، وخضوعه الكُلّي لمرآة الغرب، هي التي تهجوهُ وتُشهِّر به، وتزيح الضباب عن عيون قطاع من الشعب تعرض للخديعة حين قيل له: إن صداقة الأعداء، ومعاداة الأصدقاء، ستزيد وجبة الفول، وإذا بالفول مفقود من مصر.

ليس كتاب هيكل المدهش قصة عن فترة مضت من تاريخ مصر والعرب، إنها شهادةُ الآن.. وهذا ما يجعل كُتّاب أرباب العائلات الحاكمة خائفين، لأن ما تقوله سيرة حياة هذا الدكتاتور الرخيص تقوله حياة حكام آخرين، تقوله سياستهم، يقوله اندفاعهم المجاني على واشنطن. والذين يدافعون عنه، عن السادات الحي فيهم، يدافعون عن فسادهم وعن عبوديتهم. فالسادات ليس عبداً لأن أُمَّهُ أَمَةٌ - كما أرادوا أن يفهموا - بل لأنه كان يبيع الأمَّة إلى من هو أكثر عبودية منها، ظاناً أن صورة الحرية لا تقاس إلا بمرآة الغرب، ولأنه استبدل الصراع بالامتناع عما يوهم حكمه الأميركي بأننا طرف في الصراع.

إن محاكمة المرحلة الساداتية هي محاكمة ضرورية، وثورية، لمعرفة اتجاه المفاوضات الدائرة بين وضع عربي يعذّبه العجز عن أن يكون شبيهاً لإسرائيل في علاقتها بأميركا، وبين سراب قادر على تجريد الطرف العربي من أي سلاح، حتى سلام الحلم.

محاكمة السادات هي محاكمة الوضع العربي الذي انعطف دون أن

يجرؤ على التعبير عن نفسه، فكان السادات ناطقه الرسمي. وهي محاكمة ومراقبة الانهيار التدريجي الذي أصاب بُنى المجتمع العربي دون أن يتمكن الفكر العربي من مراقبة الظاهرة في نموها، وفي علاقات أطرافها، من تفريغ القطاع العام في مصر، إلى تغيير موسيقى النشيد الوطني، إلى ظهور الصليبيين الجدد في لبنان، إلى اتفاقيات كامب ديفيد، إلى احتلال بيروت، ومذابح الفلسطينيين في كل مكان، إلى توقيع اتفاقية إنهاء الحرب، وملحقاتها، بين إسرائيل ولبنان.

لقد وقعت الكارثة. ما سيتلوها سيكون تنويعات على إيقاعها المهيمن، منذ استدرج الوضع المصري الداخلي، بقيادة السادات ولهفته، إلى وضع الأوراق كلها في يد أميركا، وأُسلم إلى خيار وحيد: توقيع الصلح، أو الاستسلام، أو القفز السعيد في قيود السيطرة الأميركية، الذي عنى، حتى الآن، إخراج مصر من الساحة دون أن ينجح هذا النوع من السلام في مداواة جراح مصر، فتوفرت لاسبارطة اليهودية فُرص أسهل لتحسين ديمقراطيتها العائلية، وتفتيت الحال العربية اليتيمة بعد مصر، الحال المحرومة حتى من نِعَم كامب ديفيد.

كنا دائماً نقول: إن كامب ديفيد ليس للجميع، بل هو لمصر ولبنان، لأن سائر المناطق «المتنازع عليها» ـ هكذا صاروا يسمون أوطاننا ـ غير قابلة للتفاوض، إلا إذا أضيفت إليها مناطق أخرى سيُقايض الجلاء الاسرائيلي عنها بالتسليم بالاحتلال الاسرائيلي السابق.

هذه هي ثمرة الدكتاتور، الرئيس المؤمن، الرئيس مدى الحياة، الذي استطاع في غياب الحد الأدنى من الديمقراطية أن يجثم على صدر وطن سماه عائلة، وسمَّى نفسه رب العائلة، وفَصَّلَ ما يشاء من الثياب الدستورية على مقاس شهواته.

فهل يكون الرئيس مدى الحياة رئيساً مدى الموت؟

هذا ما يسعى إليه أشباهه، أرباب العائلات العربية الأخرى، الذين

يريدون حرمان الوعي العام من الاطلاع على الكيفية التي تربط بين خطوات السادات السياسية، المترابطة بمنهجية مُحْكَمة.

السادات لم يمت تماماً. فهل يفكر الكثيرون، بعمق، في الدلالة الخطيرة التي يشي بها منع «خريف الغضب» في العالم العربي، ووقف نشره في أغلبيّة الصحف التي باشرت النشر ثم أوقفته بأوامر عليا؟. هل نتجنى على أحد، أو على وضع، إذا لاحظنا أن للساداتية، بما تعنيه من مصلحة أميركية ـ اسرائيلية ـ عربية، مركزية قرار، فنسأل: من الذي يحكم الوضع العربي؟ فلا نجد فارقاً بين الرئيس مدى الحياة والرئيس مدى الموت. لأن الرئيس ليس هذا ولا ذاك. إنه قابع في مكان آخر غير العرش وغير القبر.

للكاتب، إذاً، أن يزداد افتراقاً، وأن يجادل بين قوة الكتابة المستمدة من الالتصاق بالحقيقة، وبين قوة الدكتاتور التي تتزوَّد أيضاً من ضعف الكتابة. فالضحالة المميزة لكل مستويات النشاط الثقافي هي شرط من شروط نمو الدكتاتور، الذي ينهب الثقافة. فَلْيَفترِق الكاتبُ، لِيَفْتَرِق لكي يعرف كما يعرف محمد حسنين هيكل طاقته. إنه قادر على تحطيم الصنم. شهادات الكتاب العرب على زمنهم الوغد كافية لأن تخلخل وتغير.

الأصنام كثيرة في الساحات والعقول. فليتقدَّم الكاتب. ولينهرِ الخديعة المهيمنة، فإن خريف الغضب سيجتاح ربيع الدكتاتور.

في وصف حالتنا:

أنا لا أريدُ دعاءكُمْ
أنا لا أريد سيوفكمْ
فدعاؤكُم ملحٌ على عَطَشي
وسيفكمُ عليّ

* * *

. . لأن الطائرات قد هيمنت على الفضاء، وعلى أصابع الأطفال، بطريقة محكمة محكمة، واستخرجت أحشاءهم، كما اتفق كما اتفق، ونثرتها على أغصان حديد منحنية.

لأن الطائرات، الحيوانات المعدنيّة المفترسة تهبط بلهفة وخفّة، من أزقّة الغيوم الضيّقة، ومن بين أغصان الشجر الجافة. والممرات الصغيرة بين شبابيك متجاورة متقابلة، ومن بين عبارتين قصيرتين في حوارٍ سريع بين فارس يرحل وامرأة تقشرٌ البطاطا،

لأن الطائرات تعرف طُرقها من بين أصابع يدنا المفتوحة في هيئة خطاب، وتستولي على قتلي استيلاء السماء الصافية على شجرة وحيدة في حقل مفتوح،

وتُحيل بيروت إلى سؤال من دم وبحر يبتعد،

لأنها تهيمن على الأشياء والأسماء من فوق ،
لأنها تُسمِّي الزمن العربي الرسمي بما يستحقُّ من مديح ،
ولأنها تترك في خرائب العاصمة الوحيدة ، التي لم تعد عاصمة لشيء ،
وفي خرائب الضمير، وفي كل مدينة أخرى ، من مكة المكرمة إلى طنجة الآثمة ، قنابل من الأسئلة السريعة الانفجار ،

فإني انتهز هذه الفوضى ، لأطرح سؤالاً أنيق الشكل :
ماذا
تبقى
من
الهيكل؟

* * *

عشرون مملكةً . . ونَيِّف
كوليرا وطاعون . . ونَيِّف
من ليس بوليساً علينا
فليشرِّفْ!
من ليس جاسوساً علينا
فليشرِّفْ!

* * *

لا . ليس عُرساً آخر هذا المهرجان الدمويّ . يسقط الشهداء ، ولا يسقط الوطن عن الورق أو يسقط الوطن ، ولا يسقط الشهداء عن الخيل . لا . ليس عرساً بلا موت ،

لأن الفلسطيني/ اللبناني المقيمين في شظيّة واحدة ، في جُثَّةٍ واحدة هي الضوء الوحيد ، لا يرقصان لانتصارٍ مُسيَّج بهزيمة شاملة ، لأنهما لا يؤسسان غيتو جديداً يجعل اغترابهما عن الآخرين احتفالاً بهوية واحتفاء بقبو.

لأنهما وعدٌ.

جسرٌ
ألف باء الأفق
ولأن الغيتو نموذج انحطاط . .

لذلك يناديان ، من بين الأنقاض ومن بين أعضاء جسدهما المتطايرة : إلينا أيها العرب المسحوقون ، المنسيون في ملفات الغبار، المطمورون تحت صخرة القمع . . إلينا يا أسرى الغزو الحر، من المحيط إلى الجحيم ومن الجحيم إلى الخليج . فإن لم تصلوا سيبقى الأفق الذي نراه من ثقب أحمر في صدرنا الواحد مفتوحاً للطير الأبابيل ، المزوَّدة بوقود الملك الجالس على البرميل ، وسيبقى مفتوحاً لغزوة الولايات العربية ـ الأميركية ، حسنة النية والطوية ، لمواصلة مُهمة الغارات اليهودية ، بلغة عربية ، وبأسلوب أخوي . . أخوي . . أخوي حتى القتل .

* * *

صوتٌ وراء التلْ
يا أيها الأوَّلْ
فَلْتَسقطِ الهيكلْ!

* * *

لا . ليس عرساً آخر هذا المهرجان الدموي . إنه افتتاحية النشيد . سطوة السؤال . امتحان نهائي ، ربما نهائي ، للشعار البديع الذي حوَّل الملايين إلى قطيع . استئصال الفكرة التي كانت تُسند القارة من السقوط أو مدها بجسور لا تراها الطائرات والمخابرات . مواجهة السؤال الذي يأتيك ولو كنت في برج مُشيَّد : من أنت بالضبط؟ مع الحرية أم مع النفط؟ شرح فلسطين على الملأ : فهي ليست ببلاد بقدر ما هي سرُّ بقاء الجمرة ، حيَّة حيةً ، في الرماد . الاختيار بين غيتو القبيلة ومسادة الجديدة المحورة . خروج إلى الأفق أو انتحار شمشوني المعنى ، والمبنى آخر . .

للفلسطيني أن يُوسِّع أفق الهوية .

للعربي أن يكون فلسطيني البداية والوعد،

وللبناني أن يحتفي، بلا وجل؛ بالجسر الذي يمده بين المعاني التي تتشرّد، ويسند الفكرة التي لجأت إليه.. اليه وحده بعدما عادت القبائل إلى حظائرها.

إنه قَدَرٌ وابتكار وحرية.

لا. ليست بيروت إلا لأصحابها

وللشهداء الغرباء مُتَّسع في المعنى الأخير.

بيروت القلعة

بيروت النزيف

بيروت الموجة التي يحملها طفل من البحر إلى البيت، يحملها بيد مرتجفة، يسهر معها، ويعيدها إلى البحر سالمة.

فليقف النشيدُ الطويل، على قدميه المقطوعتين، ليقف على الألم الحقيقي أو على الألم الشبح، أو فليخلع جلده ليُغطي به جسم بيروت المحروق،

بيروت القلعة، الموجة، الفكرة الأخيرة، بيروت المعجزة.. منذ بدء الخليقة حتى قلعة الشقيف!

* * *

أرضٌ من الشهوات يحملها صبيٌّ

فوق كفيهِ ويركض في غرائزنا.. وأرضٌ من خرائط روحنا

اتبَّعتْ مساراً واحداً.

دمنا ومجراه الصغيرْ.

أرضٌ من الاسمنت والبرقوقِ والقتلى على الراياتِ،

أرضٌ، آخرُ الأرضِ، انبجاسُ الضوءِ من حجرٍ أخيرْ.

هذا الطريقُ هو الطريقُ

ولا طريقَ سوى الطريقِ إلى الجنوبْ.

ألرومُ قد قطعوا الدروب عليكُمُ
واستأجروا أسماءَكمْ
ونساءَكمْ
وهوى القناعُ
هوى القناعُ
هوى القناعْ

* * *

في النشيد الطويل الذي يُعاند نهاراً لم يُرَوَّض، في خمسين سنة من عملية انفصال القامة عن الظل، في مساحة يملأها الرحيل عكس الوطن من أجل تصويبٍ أدقّ . .

في النشيد الطويل، المتعرِّج كجمال الخرائط الملونة، كاندفاع القلب إلى وراء وإلى أمام، كزواج العناصر ذات الروائح المالحة في خريف مرتقب،

في النشيد الطويل كمنديل أمّ على شاطىء
كانفلات السفينة البطيء من كتف اليابسة،
في النشيد الطويل الذي يُحبُّ أن يوصف، أكثر مما يصف،

المنعوت، الملعون، المجنون كأي شاعر مصاب بحرف النون،

النشيد الطويل الذي يمرُّ بحوادث عابرة عارضة، مثل إسرائيل، وتحليق العباءات على جناح الكونكورد، وتحوّل العلماني إلى عثماني، والثوري إلى قدري، والطائفة إلى عاصفة،

النشيد الطويل الذي يدافع عن حقٍّ المحارب في استراحة اسمها النصر، ولا شيء غير النصر.

إلاّ النصر،

النشيد الطويل الذي لا يفهم لماذا تكون الكوكاكولا حتمية تاريخية،

ولماذا يكون بنطلون الجينز دكتاتورية أكثر شرعية من حق العمال في الاضراب،

في النشيد الطويل الذي ينضبط بقواعد الإعراب ولا يدقق، طويلاً، في الفوارق بين الأحزاب،

في النشيد الطويل . .
النشيد الذي الذي الذي
لا أعرف ماذا . . أقول!

* * *

وحدي أُنظِّفُ ساعديَّ من الشظايا
والصلاةِ عليَّ،
وحدي أخرجُ الصاروخَ من رئتي
وأُشعل من بقاياهُ
بقايا التبغ في شفتي

وأطردُ أقربائي من مآذن روحي الملأى بسرب الطائرات القادمات من السماءِ ومن نوافذ إخوتي، واسم النبيِّ، عليه صلَّى ثم سلَّمْ.

إنَّ الصلاةْ
خيرٌ من التفكير بالبلد البعيد وبالضحايا.
إنّ الزكاة
بفارقِ الأسعار والبترول خير من مساعدة السبايا.
خبأتُ جسمي في الشظايا
والشظايا ملءُ جسمي
فاختلطنا: المعدن البشريُّ واللحمُ الحديديُّ
اختلطنا.

أنا لا أُريد دعاءكم

وحدي أنظف ساعديَّ من الشظايا
والصلاةِ عليَّ . . وحدي .

أنا لا أريد سيوفكم
فدعاؤكم ملحٌ على عَطشي
وسيفكم عليّ

* * *

تقودنا صورتُكَ، سيدي، إلى الاعتقاد الأكيد بأن السماء واطئة. وفي وُسع أية لاجئة كأمّي، سيدي، أن تعلّق جواربي المقطوعة على عرش. لماذا يطول المؤقّتُ ، سيدي، إلى الحد الذي يجعلني أذكر اسمك بلا أخطاء، وأفقد ذاكرتي إلى درجة لا أعرف معها كيف انبرى الشرطي لاسمي وصوره لينشره على إحدى وثمانين مئذنة تطالب، خمس مرات في اليوم الواحد، سيدي القائد، بتحويله إلى سبب انتشار الطاعون، سيدي، الطاعون يأتي من العلاقة ما بينكم ومن هم دونكم، ولم أدخل في هذه المساحة قط، ولم أدرك المبتغى ولا المبغى الذي أنشأه، سيدي، الحاجبُ بين الحق والواجب. لكنني كاتب خائب يحبكم، سيدي، انصياعاً لمرسومكم سيدي سيدي سيدي، عندما تتعبون من المفاجأة مروني لكي أأتمر. هل يدوم المؤقت، سيدي، إلى درجة لا أتعرف معها على قلبي الذي يسبقني بالدعاء لكم بلا سبب، فأمتثل إلى ما يتركه هذا الشارع من خداع البصر، البصر الذي علّق القمر على بابكم العالي ومنع زهرة البرتقال من التنفس الا لكم، سيدي، عندمال تمرون في جنازة تشييع قتلاكم. سيدي هل يطول المؤقت إلى الحدِّ الذي أعتقد معه أن خطوتكم وحكمتكم توأمان يسألان: بأي آلاء ربكما تكذبان؟ سيدي، أنت والمؤقت، لا وطني يتفتت حين تغيبان عنه، ولا بدني يتشتّت حين تجيئان، سيّان سيّان يا سيدي، فهل لي وقد بلّلتني بدموع البكاء على الرعية أن أسألك بلا صنعة وتكليف:

لماذا تحكم
ومن تحكم

وإلى متى ستحكم؟

* * *

الكراسي/ المآسي
المآسي/ الكراسي
فإمَّا المماتُ
وإمَّا الكراسي
وإمّا الكراسي
وإما الكراسي.

* * *

في وصف حالتنا أقولْ:
وطني حقيبة
أو بندقيهْ.
في وصف حالتنا أقولْ:
وطني سحابُ
أو شظيَّةْ

* * *

وحاربتُ وحدي، انتصرتُ على الخوف من سُحُبٍ قد تغطِّي عروشكم أيها الجالسون على كتفيّ.

خفراءَ برتبة أُمراء.

.. وسأُحارب من أجل مملكة البصل الأخضر، والبقدونس الذي ينمو في حوض صغير، وشرب الخمرة، وتحليل الأحزاب وتحريم الحزب الواحد والعائلة الواحدة والشركة الواحدة. سأحارب من أجل تحليل لحم الخنزير وتحريم لحم السجناء. وسأحارب في مملكة البصل الأخضر وسائر الصفات التي ذكرتُ أعلاه، من أجل حق الناس في النوم في الساعة التي يريدونها،

وحقهم في الحلم بلا وجل وآلة تسجيل، وحقهم في ألا يرفعوا أغاني الحب إلى من لا يحبون، وحقهم في أن يعتقلوا في الساعة التي تحددها العدالة في المحكمة التي لا تغلق أبوابها أكثر من يوم واحد في الأسبوع، وحقهم في أن يموتوا بالسبب الذي يصيبهم. فقد يحدث في مملكة ما، في سجن ما، في شارع ما، أن يموت الإنسان بلا مشنقة!

* * *

وحدي أغطِّي البحر من نظراتكُمْ
وحدي أعيد بناء روحي بعدما حطمتموها
بالخطابةِ والقنوطِ
وحدي أُعيدُ إلى السقوطِ
ملكاً
ومملوكاً
ومملكةً
وسفَّاحاً بزيّ إمام مكةْ
وحدي سأمتلك الضجيج
وحدي سأهتفُ في الخليجِ
أَنا الحصارُ
أنا الحصار
عود الثقابِ
دمي
وأحذيةُ النهار
دمي
وقاموسُ الترابْ
وأنا الحصارُ
ولا حصارَ
سواي،

لا ضوءً سوايا
خبأتُ جسمي في الشظايا
والشظايا ساعدايا . .
أنا لا أريدُ دعاءكم .
أنا لا أريد سيوفكم
فدعاؤكم ملحٌ على عَطَشي
وسيفكُمُ عليَّ
وأنا نبيٌّ جراحكمْ ولكُلِّ جرحٍ فيكُمُ قَبرٌ صغيرٌ للنبيِّ :

عارٍ من الراياتِ
والصلواتِ
أسترُ عورتي بقذيفتي
وأخبِّيءُ الأسماءَ فيَّ . .

حافٍ من الأوطانِ
أمشي فوق هامات الملوكِ
وما تبقّى من ملوكْ
ومآذنٍ تعلو كأعمدة المشانقِ
فوق بارات الشيوخ ،
إليَّ
إليَّ يا عربَ البعيدِ
إليَّ
كي نحمي الجزيرة من قبائلها . . إليَّ .

غزال يبشر بزلزال . . .

● مقدمة المجلد الثالث من الأعمال الكاملة للأديب الكبير الشهيد غسان كنفاني . ويضم هذا المجلد دراسات غسان عن الأدب في الأرض المحتلة .

من الطبيعي أن يكون دمه قد جف . ومن الطبيعي أن يكون أصدقاؤه قد عادوا إلى لغتهم . ومن الطبيعي أن نستعيد قدرة الكلام عنه كما نتحدث عن الأنهار التي اخترقتنا وذهبت .

وهذا ما يحدث لي : أيام وأيام أحاول فيها أن أعتاد هذا « الطبيعي » لأكتب عنه في هدوء . ولكنه يطردني عن الورق ، فإن حبره لم يجف . هو الذي يمنعني من أن أفي بوعدي ، هو الذي يمنعني عن الكتابة .

الكتابة ! كم نتساءل : ما هي؟ ونتعثر . ذباب كثير يحط فوق الكلام الجميل . وكأنه الفلسطيني الوحيد الذي أعطى الجواب القاطع الساطع ، وكانت الشهادة شهادة ، وكأنه أحد النادرين الذين أعطوا الحبر زخم الدم . وفي وسعنا أن نقول : إن غسان كنفاني قد نقل الحبر إلى مرتبة الشرف ، واعطاه قيمة الدم .

فيه حسم لتعدد أشكال سوء الفهم والتفاهم . وفي كتابته سطوة اليقين . من تيقن قراءته يطرح الأسئلة على مستويات مختلفة .

هنالك من يعتبر الحياة اتهاماً وخيانة، فيثني الكتابة عن فعاليتها لأن الحرية لا تأتي بغير الموت! . . ومن هنا، يتحول الموت لدى هؤلاء إلى هدف في حد ذاته. « أنت متهم إلى أن تثبت موتك ». داء شاع في حياتنا الفلسطينية، فاتخذ الفاشلون فينا جثث الشهداء متاريس وخنادق وقاعات محاكم. أطلقوا النار على الذات مرة، وانتظروا رصاص الأعداء، مرة أخرى، ليكون معيار الجدارة. هذا الطراز ذاته من النظر إلى الحركة وإلى الأشياء يحول جثة غسان كنفاني إلى قاعدة لاغتيال الكتابة. وهي، بذلك، تجرد كاتبنا الكبير من أية قيمة خلاقة عدا الموت.

وهنالك، هنالك من يعطي الكتابة قدسية الانفصال، وشرعية الطلاق عن المغامرة، والاحتيال على الحياة والخطر. هنالك من يعتبر الكتابة غاية في حد ذاتها.

ولكن غسان كنفاني هو كاتب الحياة. كان يكتب لأنه يحيا. وكان يحيا لأنه يكتب ويحيي ذاكرة الفلسطيني لتكون مكان المستقبل. لم يكن الموت هدفه لأنه لم يكن عاجزاً عن الحياة في الكتابة، ولأنه لم يكن بعيداً عن حركة الفعل الفلسطيني الثوري التي تبلور حياتها في الصراع. وكان توحده في الفعل الكتابي، والذي يبلغ حد التصوف، نوعاً من استرداد حياته في حياة شعبه وصياغتها في مسرى الحلم العظيم.

لقد سقط غسان كنفاني في ميدان الصراع. سقط وهو يسيطر على موقعه الكتابي. وقد اغتالة الأعداء لأنه حمل فاعلية الكتابة التي تصنع جيلاً سيعثر على أداة التعبير عن فاعليته في السلاح. ولذلك، فإن الدفاع عن غسان كنفاني، أمام أخطاء من لا يرى فيه غير موته، هو دفاع عن الكتابة وعن الحياة.

ويعرف الكاتب الثوري أن أداة التعبير عن فاعليته الاجتماعية تأخذ شكل الكتابة لأنها تميزه وسلاحه. وليس بوسع الكتابة أن تحقق أثرها النضالي إلا إذا كانت كتابة ناجحة. فالفن الرديء الذي يروج له الصغار في حياتنا الآن، تحت أي شعار كان، لا يقل ضرراً عن السلاح الرديء. وقد

كأن غسان كنفاني فعــالاً ومــؤثراً باتقانه مهنة الــكتابة، بخصوصيته الفنية الجميلة، وبطريقة توظيفه هذا الجمال. وليس بانقلاب المعادلة.

لن نلتقي به بعد... لن نسمع مزيداً من تعليقاته الساخرة على الذين يأتون إلى الكتابة بفضيلة القضية. ولـكنه يقتحمنا دائماً بقوة كلماته التي لا تموت. كم كتب الفلسطينيون وماتوا. ولكن حبرهم كان يجف مع دمهـم. كتابته هو قد تكون هي النادرة التي تصلح للقراءة بعد العودة من جنازة كاتبها. وتاريخ تبلور النثر الفلسطيني الجديد يبدأ من غسان كنفاني.

لماذا هو.. لا سواه؟ تلك هي الهدية. ذلك هو النجم. هو الموهوب الذي عرف كيف يربي موهبته وفي أي نهر يضعها.

لقد تمكن غسان كنفاني من أداء دوره، لأن له دوراً، ولأنه مؤهـل، فنيا، للقيام بهـذا الـدور. كان نتاج رحلـة العـذاب الفلسطيني من السقوط المتمثل في وعاء المخيم حتى الصعود المتمثل في واقعية البندقية. وفي عمله الكتابي الذي مارس من خلالـه دوره الاجتماعـي والـوطني تأريـخ الحركة الفلسطينية في قلب فنان. لقد كان ثورياً من حيث هو كاتب ثوري. لم تنتزع هذه الصفة من لحظة الاستشهاد.

كان يعرف لماذا يكتب ولمن يكتب. ولكنه كان يعـرف أيضـاً أن قيمة هاتين المسألتين مشروطة، لأنتاج الفـن، باتقان تطبيق المسألــة الأخرى: كيف يكتب.

لم تسلم كتابة غسان من الاتهام حين ارتقى بشكله الكتابي من حالـة السكون الوصفي إلى حالة أرقى واصعب بتأثير تعقد القضية التي تحتويه. ولم تسلم من مواجهـة هذا السؤال الأبدي: من يفهـم هذا الأسلـوب؟ لم يكن غسان كنفاني سهلاً كما يبدو لقرائه السطحيين. صحيح أنه كرس كل طاقته الخلاقة ونشاطه الاجتماعــي في خدمة قضيته الــكبرى. وصحيح أن هذه القضية، بجماهيرها وأشكال صراعها، كانت هاجسه العظيم. ولكن الكتابة، كقضية كانت أيضاً هاجسه. وأن التعامل مع سؤال مثل «قضية الكتابة» جعله

قادراً على التطور الدائم وحياً إلى هذا الحد.

لـم يستطـع غسان كنفاني أن يكون مؤثراً وفعـالاً إلا لأنه كان كاتباً محترفاً . حتى في كتابته الصحفية أو اليومية كان شديد الخصوصية والتميز والاتقان. رشيقاً ومتوتراً كغزال يبشر بزلزال.

كان ممتلئاً بحيوية نادرة في هذا الجيل. كان مسكوناً بكهـرباء لا تنضب. ولـم يترك لنشاطه الواعـي مجالاً واحداً للـراحة. لم يقض إجازة لاستعادة قواه بين رواية وأخرى، أو عمل وآخر. لم يذهب للامتلاء بالتأمل من أجل تنفيذ عمل كتابي جديد. كان يجدد وقوده الإبداعي بتبذير قواه. كان يتزود بالـطاقة تلقائياً، فالـذاكرة الجماعية لا تستنزف. وكان يستعيد ملء طاقاته بعمليات تفريغها الدائم.

هل كان حقاً يشعر بموته المبكر، فأطلق ينابيعه إلى هذه الـدرجة من الإسراف؟ هل كان هاجس الموت يستدرجه لصب طاقاته في وقت قصير؟ هل كان استشرافه لهذه النهاية ـ البداية دافعاً لتناول كل أشكال التعبير من قصة ورواية ومسرحية ودراسة وبحث ونقد، ليسجل دمه على أصابعنا وذاكرتنا؟ وهل كان يسبق الموت إلى الحياة في الكتابة؟

ربما. وربما كان هذا السباق أحد أجمل تجليات « الأنانية » الخلاقة والتفاني في آن واحد. إنهـا شكل نادر من أشكال تحقيق حياته في سياق تبذيرها في حياة الآخرين. وهكذا تتحول أنانية الفنان إلى نهر كريم.

إن الذين عرفوه، عن كثب، كانوا يعرفون مدى حيويته وقدرته الثمينة على العمل. وكانوا يعرفون أيضاً حرصه المرهق على تحقيق ذاته الفنية. كان يقوم بكل الأعمال العامة طيلة النهار. وفي آخر الليل . . . في أول الفجر كان يذهـب إلـى كتابته « الخاصة »، إلـى كتابته الفنية، فلـم يكن متاحاً له أن يتخصص بشكل علني. كان يحترف الكتابة سراً. لماذا؟ لأنه فلسطيني . . . ببساطة لأنه فلسطيني.

لـم يقـل أحد أن الفلسطينيين لا يرحمون أدباءهـم. سأقول: إن

الفلسطينيين لا يرحمون أدباءهم . ذلك من فرط إيمانهم بفاعلية الأدب الذي قدم لهم ، ومنهم ، تعويضاً عن مهانات ، عندما فقدوا كل شيء ولم يملكوا إلا كلمات . وذلك لأنه استمد منهم القوة ليؤسس لهم العلاقة . نادراً ما يسطو الوطن ، كما يسطو على أدب الفلسطينيين . ولذلك ، يدرك الفلسطينيون ، وبحق ، أنهم هم الذين خلقوا أدباءهم . . . ولذلك أيضاً يطالبونهم دائماً بالمواطنية المثالية وبالطاعة الفولاذية ، ولا يسمحون لهم في أن يكونوا أقل من جنود أو قديسين . ومن هذه العلاقة الصارمة ، من هذه المطالبة التي تشمل كل شيء يجد الأديب الفلسطيني نفسه «يسرق» حرفة الأدب سراً . وفي النهار عليه أن يمارس أشكالاً أخرى للتعبير عن التزامه بسلطة الوطن!

هكذا كان غسان كنفاني يغتصب كتابته الفنية من الساعات المخصصة لنومه . ولم تكن تلك الكتابة إلا نتاج علاقته بفلسطين ـ الوطن والحلم والصراع والجماهير والمنفى . كان أكثر من كاتب . ولكن ما أفدح الخطأ الذي يرتكبه صغار النقاد والصحفيين ويخدعون به الناس حين يضعون واو العطف [للتميز] بين الكاتب والمناضل . كأن يقولوا : كان كاتباً ومناضلاً . ليس الأمر في مثل هذا التفصيل ، فقد كان غسان كنفاني كاتباً مناضلاً .

كثيراً ما يجابه الكاتب الفلسطيني باسئلة تأتيه من البراءة أو الاتهام . هل أنت كاتب أم مناضل؟ . في مرحلة تاريخية معينة يحدد الكاتب المناضل بأنه الكاتب الذي يعبر عن حركة القوى الثورية . . عن حركة الجديد . وغالباً ما تكون اداة تعبير الكاتب عن اندماجه بقوى الثورة هي الكتابة . وقد بقي غسان كنفاني مطارداً بهذا السؤال إلى أن بلغ الشهادة ، فهزم السؤال وانتصرت كتابة غسان .

كان نشاطه الكتابي متعدداً . والطريقة التي سفك فيها دمه محرومة من الوصف . لقد رسم جسده الممزق حالات القضية الفلسطينية . . لقد حقق الأسطورة .

كم من صديق رثيت . ولكن لم أحس بأنني أرثي نفسي ، فأعيد صياغة حياتي ، إلا عندما حاولت الإمساك بطرف هذا البركان . غسان كنفاني . ماذا

بوسعك أن تفعل؟ حقاً، ماذا بوسعك أن تفعل؟ هكذا ينقض الكاتب على نفسه في حضرة الكارثة التي لا يردها قلم. ولعل مثل هذه الحالات التي تنتقص من جدوى الكلمة وقوتها في سياق المقارنة مع عناصر الطبيعة أو الفعل الهائل هو الذي خلق، منذ القدم، تقليد عقد المقارنة الظالمة بين الكلمة والفعل. ليس الخطأ، دائماً، أن نقدم اجابة مخطئة. أحياناً وفي مثل هذه الحالة بالذات يأتي الخطأ من مجرد طرح هذا السؤال.

وإن الموت حادث. ولكن هنالك نوعاً من الموت يأخذ شكل الإجابة على معضلة أو مقارنة. وهكذا يتحول مصرع الكتاب المناضلين إلى دلالات ورموز. وهكذا كان مصرع غسان كنفاني شهادة على فاعلية الكتابة لا نفياً لها كما يتصور الميكانيكيون والعاجزون أمام حركة العلاقات، كهؤلاء الصبية القادمين إلى اسم الثورة من أقاليم العجز والاحباط والقبح، ليعمموا عاهاتهم على الورق وعلى نفسية البشر، فيتهمون الفن بالردة، ويتهمون الحياة بالخيانة.

صديقي غسان! كم من صديق ودعت، ولكن لم أودع مرحلة من حياتي إلا في وداعك الأخير. كان آخر ما انتظر من كوابيس هو أن أقدم لاعلانك السابق عن وجودي منذ عشر سنين. لقد ولدت قبل ذلك، ولكنك أنت الذي أعلن ميلادي. لم أقل لك: شكراً، فقد كنت أحسب العمر أطول.

الآن نقول: أدب الأرض المحتلة.. ها.. ها! ولكن الحالة كانت تختلف عامئذ. فقد كنا مجموعة من شباب دون الثلاثين نفتقر إلى أدنى مقدمات الرد العملي على الهزائم التي يعاصرها وعينا وعارنا. وكنا نحاول كتابة الشعر دون أن نعي أنه شعر. كنا نصرخ، نتوجع، نحتج، فلم نملك اداة تعبير أخرى. وكانت أغلبية مواطنينا تسخر منا، لأنها تعرف طفولتنا ومراهقتنا وصبانا معرفة لا يليق بها الإعجاب. صبيان يكتبون شعراً. وكان لقب «شاعر» طموحاً قاسياً يعذب. وفي أحسن الأحوال كان بعض المعلمين يقول: مبتدئون لهم مستقبل. حتى العدو نفسه لم يكن يكترث بنا بشكل جاد. وفي الأمسيات الشعرية التي كنا نقيمها في القرى كان الفضول والاعتبار

السياسي وبنات المدرسة هي التي تشجعنا. فقد كان الشعـر «المعتبر» . . الشعر المقبول، آنئذ، لدى الناس والصحف هو الشعر القادم من الخارج . . هو الشعر المصنوع خارج الأرض المحتلة.

وكانت النجوم الشعرية الرائجة في العالم العربي هي ذاتها الرائجة لدى صحف العدو باستثناءات قليلة. ولم نسأل يومها: كيف يملك الشعر كل هذه القدرة على الاحتيال فيكون مطرب الاضداد؟

وبقينا مجهولين . . .

إلى أن قام غسان كنفاني بعمليته الفدائية الشهيرة: الإعلان عن وجود شعر في الأرض المحتلة، فانقلبت العلاقة داخل الأرض المحتلة وخارجها. ومشى التطرف إلى نقيضه المتطرف: لا شعر إلا في الأرض المحتلة!!.

الفضيحة معروفة. ولا أضيف هنا جديداً. وسأعترف بأن شهادتـي لا تتمتع بأية قيمة عدا قيمة الاعتراف: نحن الذين كنا نكتب ما سمـاه غسـان «شعر المقاومة» لم نكن نعرف أننا نكتب «شعر مقاومة» وقد دهشت، قبل سواي، بهذا الشغف السياسي بما نكتبه. كل شيء قابل للتفسير كأن نقول: مرحلة تاريخية معينة انفتحت فيها النفسية العربية الجريح على تقديس كل ما يرد من أرض فلسطين. ولكن . . . ولكن بعضنا داخ من اللذة، وبعضنا صار يصمم القصائد لحناجر المذيعين، وبعضنا خاف المسؤولية وقلق. وبعضنـا أدرك أنهـا موجـة وتنكسـر ولا يبقـى من هذا الزبـد غير الشعـر الحقيقـي. ويومها . . يومها كتبت: «انقذونا من هذا الحب».

ولكننا نعرف جيداً أن محاولات الغاء الشعر العربي الثوري كله بواسطة خطب حماسية أو بكائيات يكتبها شباب في الأرض المحتلة، قيمتهم الفنية الأساسية هي أنهم يعيشـون في الأرض المحتلـة، ليسـت من صنـع غسـان كنفاني.

إن ما فعله غسان هو كسر الحصار المضروب حول أوضاع العرب في الأرض المحتلة، وإضاءة كل موقع صمود يمارسه ابناء الشعب الفلسطيني هناك. وكان الشعر، ولا يزال، أحد وسائل التعبير عن هذه المواقع وعن هذا الصمود.

وكان اكتشاف العرب بأن العرب في فلسطين المحتلة يتكلمون اللغة العربية ويحبون بلادهم ويكرهون الظلم اكتشافاً مذهلاً. مذهلاً حتى الخزي. ومع ذلك، أتاح هذا الاكتشاف للصوت العربي القادم من هناك سعادة الاحساس بالانتشار والتغلب على الأسوار. وكان وعي أصحاب هذا الصوت بوجود من يستمع إليهم حافزاً لنموه وتطويره لدى البعض، وعقبة أمام تطويره لدى البعض الآخر الذي اكتفى بالجغرافيا موهبة غير قابلة للمناقشة.

لقد دل غسان كنفاني الرأي العام العربي على أدب الأرض المحتلة. وأما المبالغات واختلال الموازين فتلك مسألة تخص الذين درسوا ما قدمه غسان. لم تكن لفظة « مقاومة » رائجة في الشعر هناك قبل أن يطلقها غسان عليه. وهكذا أيضاً دل المسمى على اسمه...

وإذا كان غسان كنفاني قد شمل، بهذه الصفة، كل من كتب باللغة العربية في الأرض المحتلة، فلأن أفراحه بما يجد كانت تشمل الكتاب وأشباه الكتاب، والمقاومين واللامقاومين لأن أفراحه كانت تشمل اللغة العربية في فلسطين المحتلة. ولذلك، يمكن لفت الأنظار الآن إلى أن بعض الأسماء الواردة في مقالات غسان كنفاني عن الأدب في الأرض المحتلة لا تحتل أكثر من فاصل هامشي في حياة العرب هناك، وبعضها يحتل هامشاً سلبياً يتناقض مع تقدير الوهلة الأولى.

وفي الوقت الذي كان يكشف فيه غسان كنفاني غطاء السر عما يكتبه كتاب الأرض المحتلة العرب، كان يدرس نقيض هذه الكتابة وإحدى مواد محاوراتها: الكتابة الصهيونية، ودورها في تشكيل الوعي والكيان الصهيونيين. وبكلمات أخرى: كان يدرس فاعلية الكتابة لدى العدو. فقدم بذلك أول دراسة عربية عن واحد من أخطر الموضوعات الصهيونية. وكان بذلك جديداً وكاشفاً ورائداً كعادته.

وإذا كانت الصورة التي قدمها غسان عن الأدب الصهيوني تفتقر إلى تصوير بعض الجوانب المهمة فذلك يعود إلى اعتماد غسان على النصوص الإنكليزية المختارة من الأدب العبري. وإذا كانت هذه النصوص المنتقاة

وحدها كفيلة بالتدليل على الدور التدميري للثقافة الصهيونية، فكم ستكون الصورة حالكة حين نطلع على الأصل العبري الصريح الذي لا يراعي متطلبات الحرص على الرأي العام خارج الوطن المحتل!

إن دراسة غسان تتمتع بقدرة كبيرة على التقاط الجوهري وإدراك الخصائص الأساسية للأدب الصهيوني، وتشكل حافزاً لدى دارسي اللغة العبرية لمواصلة خط الكشف الذي أسسه غسان كنفاني.

وقد يكون من المفيد أن نعرف أن الأدب الصهيوني هو أحد وسائل غسيل الدماغ الذي يتعرض له طلبتنا العرب في الأرض المحتلة. ولذلك فإنه يحمل إمكانية تشكيل المكونات الثقافية للشاب العربي الواقع تحت الاحتلال، بغض النظر عن اتجاه رد فعله عليه. فهو قد يؤثر في شده إلى مقدمات التعايش مع نمط الحياة الإسرائيلية ومن ثم إلى التخاذل أو التساهل تجاه ادعاء الحق الصهيوني على أرض فلسطين. ومن ناحية ثانية يؤثر في شده إلى موقع الرفض لكل جوانب الحياة والفكر الصهيونيين.

* * *

ويا صديقي غسان!

إن البياض أمامي كثير. ودمك الذي يجف ما زال يلون. لقد ودعت مرحلة من حياتي حين كنت أودعك. جئت ورأيت. ورأيتك كيف تذهب. لقد اتسعت مساحة الأرض المحتلة ولم يعد ذلك ميزة. ودورة السجون تدور.. تودع وتستقبل. وكل أرض ترى استشهاد أبناء شعبي. ونحن مطاردون في كل مكان. والكاتب ملعون ومتهم بالحياة والكتابة. والوطن هو الوطن ولم تكتب فيه حرفاً واحداً. وأين هي الأرض غير المحتلة في السكون؟ وأين هي الأرض المحتلة في الثورة؟

ويا صديقي غسان!

لم نتناول طعام الغداء الأخير. ولم تعتذر عن تأخرك. تناولت سماعة التلفون لألعنك كالمعتاد: «الساعة الثانية ولم تصل! كف عن هذه العادة السيئة».

ولكنهم قالوا لي: قد انفجر!

والآن، اكتب اليك دون أن أخشى يد كمال ناصر التي خطفت رثائي لك. وقال مازحاً: لا تنشر هذا الكلام عن غسان كنفاني. هذا الكلام يليق بي.. وسأقتل قريباً.

كان يمزح؟ نعم. ولكنه أنفجر أيضاً.

لا أحد يحيا لنفسه كما يشاء.

ولكننا نراك في كل مكان.. تحيا فينا ولنا. وأنت لا تدري، ولا تعلم.

صباح الخير يا ماجد

صباح الخير يا ماجد
صباح الخير

انهضْ، واشرب قهوتكَ الفاترةَ على عَجَلٍ . . على عَجَلٍ ، يا حبيبي، لأن جُثّتك الساخنة تنتظرنا على الدرجة الأخيرة، في ساحة الحَمَام، لنحملها ونغادر المدينة المطوَّقة بالعشاء الأخير.

انهض، لنسألك في أيِّ ريحٍ نسترسل، وأين نذرفُ صلاةَ الزيتون، والتوبة عن السفر خارج الشرنقة، وفي أي منحدرٍ، أو تلٍّ، نُهيلُ عليك الوردَ والمدائحَ، وفي جناح أية فراشةٍ نحفرُ نشيدَ الحديدِ، وبدايةَ الوطن الذي لا ينسلُّ من بدايته إلاّ ليُطَمْئِنَ المدلجين، على رسلهم، إلى أنهم حصى الطرقات إليه، حصى الطرقات إلى الغامضِ المقدَّس.

انهضْ، لنسألكَ السؤالَ الأخير، يا حبيبي:

أين نفترقُ؟

انهضْ، فهذا صباحُ الأحدِ الصاحي على رائحة الأرغفة، نهارٌ مصقولٌ كمرايا أوائل الخريف، نظيف مُوَرَّدٌ بدمك الأول. الشرطةُ المعدنيَّة تصطفُّ على جوانب نومك القصير، إشارة المرورِ خضراءُ من أَجلِكَ، روما لا تسمعُ إلاّ صمتنا العاصِفَ. طائرة الأرْزِ تفتحُ بطنها، منذ الفجر، لتأخذك عن أكتافنا وتُقْلِعَ. وأنت هناك، تحت مقاعد الدرجة الأولى تنام؛ في حقيبةٍ خشبيةٍ تنامُ، لا تدخِّن معنا ولا تتذكَّر، وشهادة الطبيب الشرعي، ذي الغليون المشتعل، ترقد في جيب أحد المرافقين المدجَّجينَ باسمك. والقاتل هناك، يحتسي

قهوة الأسبرسو على مائدة الرصيف، ويفكَر في الجائزة.

وداعاً تماثيل روما
وداعاً حمامات روما
وداعاً نوافير روما
وداعاً لكلِّ هواءٍ يجيءْ . .

. . وإلى أين نذهب، يا حبيبي، بكَ؟ إلى أين تأخذنا في هذا الصباحِ الصافي كاليوم الذي يتلو المذابح. إلى أين تأخذنا في الصباح الصالح لكُلِّ رحلةٍ سوى رحلة البحث عن ضريح مُمْكِنٍ، وإلى أين نذهب؟

* * *

صباحُ الخير يا ماجدْ
صباحُ الخيرْ . .
تلك هي تحيَّتُنا المكسورة كغصنٍ،
تلك هي نارنا المُعْلَنَة،

تلك هي مرثيتنا السُكَّريَّةُ لفارس منحوتٍ من فولاذٍ وسُكَّر، عليه سحابٌ خفيفٌ، عليه أطباق من نسورٍ . .

مليون نايٍ تتوقَّف عن العويل دفعةً واحدة. مليون نايٍ تتبخَّر في البراري. سماءٌ تتَّسعُ لأوقيانوس من الغيوم الراكضة. عصافيرُ تختنق في الحلق، ويصير الزفير نحاساً كلَّما ضربه الصمت انفتحتْ جهاتُ الأرضِ عن جنازاتٍ، صباحُ الخير يا حبيبي، ذلك هو خطابنا إلى الملأ على أُذْنٍ لا سرَّ فيها ولا فضول.

إلى الأمام . . إلى الأمام حتى ونحن تائهون. إلى الأمام لكي لا يبقى للندم دمعةٌ ولا ساعةٌ. خطانا تهرسُ قلوبنَا كما تُهرسُ حبَّاتِ العنب. ودروبنا تلتهمُ خطانا كما يلتهم المساءُ غابةً من نخيلٍ. وبلادنا تَحتفلُ بألفِ قتيلٍ، في الدقيقة، كما تحتفي بمليون أُقحوانةٍ تنفجرُ من باطن المطرِ الأولِ . .

إلى الأمام، ليبقى الأمام أمامنا. لنختلف عَمَّا حولنا، لنختلف عَمَّا فينا.

إلى الأمام، حتى ونحن تائهون، ذلك هو خطابنا، تحيتنا، نارنا المُعلنة، مرثيتنا السُكَّريَّة لفارس منحوتٍ من فولاذ وسُكَّر.

أيها العكس .

يا فضاءَ الكلمات المتصاعدةِ، من لحم الذين لا كلمات لهم ،

يا خيمةَ النجومِ المثقوبةَ السقف، أيها البركان المُغطَّى بوردة، وبقدم طفل يولد، يا كُلَّ الوصف الذي يحتاج إليه الإنسان ليكسر نظامَ الهزيمة المستتبِّ .

يا فم العنقود المقطوع ،

أيها العكس ترجَّل، ترجَّلْ قليلاً على أغصان القلب التي تيبَّسَت فاشرأبَّتْ لتتلقَّف خطاك. ترجَّلْ قليلاً، أو تَطَايَرْ سريعاً، تطايَرْ لَعَلَّ الرياحَ تضلُّ الطريقَ، بكَ، فتسندكَ على سياجٍ هناكَ . . هناكَ فيتبعها الموكبُ الصامتُ، الواقف في ساحة الحَمَام، في عطلة الأسبوع الإيطاليِّ، في مدينةٍ لا تحتملُ معادن هذا الصمت .

* *

صباحُ الخيرِ يا ماجدْ
صباحُ الخيرْ
قُمِ اقْرَأْ سورةَ العائدْ.
وحُثَّ السَّيرْ
إلى بلدٍ فقدناهُ
بحادثِ سَيرْ .

لروما النُعاس، وعدوى الأزقةِ، والسَّرْنَمَهْ .
سأرفو الغيومَ الشريدةَ، روما، سأفتحُ قلبيَ حتى مداهُ،
وأشرب هذا النبيذَ السماويَّ، هذا النبيذَ المؤدي إلى الله ،
ألمسُ ظِلَّ الذين أحبُّوا وتاهوا ،
واسمعُ نبضَ يدٍ سُجنت في الرّخامِ وحَرَّرَها « انجلو » . .

لروما النُعاسُ، وقلبيَ رادار كُلَّ العبيد على عتبات المسارحْ وكُلَّ الفتوحاتِ،

روما تُسَلِّم روما إلى غيرها .
وأنا لصديقي

وصديقي لي.
غريبان فيها . .
نضيف خطانا إلى مسرحِ العَبَثِ البشريّ.

* *

أتبحث عني
لِتُشْهِدَني كيفَ أنَّ الحمامةَ تحملُ في ريشها قمراً من ذهبْ
وترسمُ روما على هيئة القلبِ،
وهو يَعُدُّ الطفولةَ والماءَ في سَلَّةٍ من قَصَبْ؟
أتبحث عني
لتخبرني أنَّ روما رخامُ النساءِ، وقد مَسَّنا، وانْسكَبْ؟
أتبحث عني
لِتُبْصِرَني كيفَ أقضم تُفَّاحةَ الأرضِ خارجَ أرضِ العَرَبْ؟
أتبحث عني

لنمضْي إلى مطعم هاديءٍ، لتقولَ: كَبُرْنا
ولَمْ يذهبِ العمرُ في دربِ حيفا سُدَى
ـ أتحسَبُها الأندلسْ؟
ـ ولكنها طائرٌ في يدٍ مزَّقتها الرِّماح ولم تنبسِطْ

سأرجعُ بعد قليلٍ إليها
وأزرع متراً من الروحِ والخضرواتْ
وأبني على عُنُقي غرفةً لـ «سماء»
وأبني على رُكبتي غرفةً لـ «سلام»
وأبني على تلَّةِ الروحِ داراً لـ «داليهْ»
ـ قريباً؟
ـ قريباً، ثلاثون حيفا تعودْ . .

أتبحث عني
لأشهد كيفَ تفرُ العصافيرُ من قبضةِ اليَدِ،
كيف يكون الفَرَحْ
خطيئَتنا في المكانِ الأمينْ؟

أتبحث عني
لأحملَ ما يجعلُ القلبَ، بعدكَ، كيسَ طحينْ
أتبحث عني لِتُشْهِدَني مَصْرَعَكْ؟
أتبحث عني لتقتلني، يا حبيبي، مَعَكْ؟
لماذا، إذن، لم تجدني
لماذا
إذن
لم
تجدني؟

* *

صباحُ الوردِ يا ماجدْ
صباحُ الوردْ،
قُم اقرأْ سورةَ العائدْ
وشُدَّ القيدْ
على بلدٍ حملناهُ
كوشم اليدْ.

* *

مِنَ الصعبِ أَن أتأمَّل وجْهَ حبيبي
ولا أغمرَ الأفقَ المستديرَ
عَسَلْ.

من الصعب أن أتحسَّسَ كفَّ حبيبي
ولا أحْفَن السِّلْمَ منها
كَرَفَّ حَجَلْ.

مِنَ الصعبِ أنْ يتدفَّقَ صوتُ حبيبي
ولا يتحوَّل قَلبِي
إلى فرسٍ من أَمَلْ.

حبيبي، من الصعب أن أتأمَّلَ موتَ حبيبي

ولا أرميَ الأرضَ
في سلّةِ المهملاتْ.

* *

صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا
أما كانَ من حَقّنا أن نسيرا
على شارعٍ من ترابٍ تفرَّعَ من موجةٍ متعبهْ

وسافر شرقاً إلى الهند،
سافرَ غرباً إلى قُرطبهْ..
أما كان من حقّنا أن ننامَ ككُلِّ القِطَطْ
على ظلِّ حائطْ..
أما كان من حَقّنا أن نطيرا
ككُلِّ الطيور إلى تينةٍ متربهْ.

صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا
أما كان من حقنا أن نغنّي
لعينينِ بُنّيتين تقيمان ما بيننا والالهْ
معاهدةً للسلامْ؟
أما كان من حقنا أن نُحبَّ، ونلعنها أُورشليمْ
إذا ما ادّعى الكِذْبَ فيها نبيُّ الظلامْ؟..
فقد يكذب الأنبياءُ،
وقد يصدقُ الشعراءُ كثيرا.

صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا
أما كان من حقنا أن نرى ما يراه
وما لا يراه أولو الأمرِ فينا؟
أما كان من حقّنا أن نقول الكلامَ الذي لا يُقالْ
الكلامَ الذي ينتقي من غموضِ الفصولِ
وضوحَ النِّصالْ
الكلامَ الذي ينتقي من وضوحِ السيولِ

غموضَ قوى الروحِ فينا؟
صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا
أما كان من حقِّنا أن نداعب قِطَّةْ؟
أما كان من حقنا أن نرى وردةً
دون أن نتوجَّسَ فيها دماً قادماً من مكان قريبْ؟
أما كان من حقنا أنْ نصدِّق أنَّ لروما قَمَرْ
وانَّ لروما شَجَرْ؟
أما كان من حقِّنا أن نسافرَ داخل هذا السفر؟
أما كان من حقنا، يا حبيبي،
أن نسندَ التعبَ الحُلْوَ فوق حَجَرْ؟
أما كان من حقنا أن نسيرا
صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا؟

* *

صباح الرَّفضِ يا ماجد
صباحُ الرَّفْضْ
قُمِ اقرأْ سورةَ العائدْ
وصُبَّ النَّبضْ
على جسدٍ دعوناهُ
كتابَ الأرضْ.

* *

.. وماذا بعدَ هذي الأرضِ، ماذا
وزندك شارعٌ، وأنا رحيلُ
ثقبتَ الأرض بحثاً عن سواها
فأسندني، لأسندها، الجليلُ
فضاءٌ، أنتَ صرتُهُ، وحيداً
وحقلٌ، أنتَ طائرهُ الجميلُ

ولو..

لو استطيعُ حميتُ قلبي
من الآمالِ، لكني عليلُ
لنا جسدانِ من لُغَةٍ وخيلٍ
ولكن، ليس يحمينا صهيلُ
وكان السجنُ في الدنيا مكاناً
فحرَّرنا، ليقتلنا البديلُ
أنا أرضُ الأغاني، وهي ترمي
بمدحِكَ حنطةً.. وأنا القتيلُ
أنا أعلى من الشعراء شنقاً
وأدناهم إلى عشب يميلُ
أحبُّكَ، إذْ أحبُّ طلاقَ روحي
من الألفاظِ، والدنيا هديلُ

ولو..
لو استطيع رفعت حيفا
كقنطرةٍ، لتبلُغَكَ الخليلُ
أحقاً أنَّ هذا الموتَ حقٌّ
وأنَّ البحرَ يطويهِ الأصيلُ
وإن مساحةَ الأشياء صارتْ
حدود الروحِ مُذْ غابَ الدليلُ؟

صديقي، يا صديقي، يا صديقي
أتعلم أن صمتك مستحيلُ؟

* *

صباحُ الخيرِ يا ماجدْ
صباحُ الخيرِ والأبيضْ..
قُمِ اشربْ قهوتي وانهْضْ...

.. فإنَّ جنازتي وصلتْ، وروما كالمسدسِ، كُلُّ أرض الله روما، يا

غريب الدارِ، يا لحماً يغطي الواجهات وسادة الكلماتِ، يا لحمَ الفلسطينيِّ، يا خبزَ المسيحِ الصلبَ، يا قربانَ حوضِ الأبيضِ المتوسطِ. اختصر الطريقَ عليك، يا لحمَ الفلسطينيِّ، يا سجادةَ الوثنيِّ، يا كهف الحضارات القديمة، يا بلاطَ الحاكمِ البدويِّ، يا درعَ الفقيرِ، ويا زكاة المليونير، ويا مزاداً زادَ عن طلبات هذي السوقِ. يا لحم الفلسطيني في الطرقاتِ، يا نهراً من الأجسادِ في واحد تَجَمَّعْ، واجمعِ السَّاعدْ.

.. ويا لحمَ الفلسطينيِّ فوق موائد الحُكَّام، يا حجرَ التوازن والتضامن بين جلأديك، حرفُ الضادِ لا يحميكَ، فاختصرِ الطريقَ عليك يا لحم الفلسطينيِّ، يا شرعية البوليس والقديس اذ يتبادلان الاسم، إذ يتناوبان عليك، يمتزجان، يتحدان، ينقسمان مملكتين، يقتتلانِ فيكَ، وحين تنهضُ منهما يتوحدان عليكَ، يا لحم الفلسطينيِّ، يا جغرافيا الفوضى، ويا تاريخ هذا الشرق، فاختصر الطريقَ عليكَ. حقلَ التجارب للصناعات الخفيفة والثقيلة، أيها اللحم الفلسطينيُّ، يا موسوعة البارودِ، منذُ المنجنيقِ إلى الصواريخ التي صُنعت لأجلكَ في U.S.A. وأوروبا،

ويا لحم الفلسطيني في دول القبائل والدُويلات التي اختلفت على ثمن الشمندر، والبطاطا، وامتياز الكاز، واتّحدتْ على طردِ الفلسطيني من دمهِ.

تَجَمَّعْ أيها اللحم الفلسطيني في واحدْ
تجمَّعْ واجمعِ السَّاعدْ
صباحُ الخير يا ماجدْ
صباح الخيرْ
قُمِ اقرأ سورةَ العائدْ
وصُبَّ الفَجرْ
على عُمرٍ حرقناهُ
لساعةِ نَصرْ.
صباح الخيرِ يا ماجدْ
صباحُ الخيرْ!.

معين بسيسو لا يجلس على مقعد الغياب

لا يترك مقعداً لغيابه. ولا نقوى على توجيه الخطاب المألوف، لأن قُوَّة الحضور فيه هي ما يدلُّ عليه، وعلينا أحياناً. إنه يجلس الآن أو يقف وسط بياض الورق والوداع زحاماً كاملاً لينشر علينا الصعوبة. وها أنذا أُعلن أنه يحاصرني تماماً، ويدلق عليّ حبر تاريخٍ لا يتماسك في كتابةٍ أولية، إذ لم أفتح دهشتي وصدمتي لاحتمال هذا الغياب الصاعق. هو لا يخرج مني ومن أيّ باب. كان شديد الشبه بعادات تُجاوزُ الألفة إلى الإدمان، وكان صديقاً شديد الإلتباس؛ كان صديقاً يُحيِّر الصداقة، لأنه كان تَوَقُّعاً لا ينتهي إلاَّ ليفاجىء.

لا، لا أستطيع الكتابة في هذا الضجيج الذي يُثيره فيّ. كم مرة سأحاول، كم مرة سأرجوه أن ينصرف عني قليلاً لأراه بطريقة أدق، وكم مرة سيضعني في كتابة أولية؟ إن ما يطفو عليّ من دم التجربة، الساخن، الطازج، يدلني، أيضاً، على أننا لم نبدأ كتابتنا منذ اللحظة التي لم نتمكَّنْ فيها من تلاوة وصيتنا الأخيرة على مكان، أو على أحد.

الشاعر يموت على طريقته الخاصة؛ الشاعر ينفجر؛ يتطاير؛ يريد مفتاح الغروب، ولكنه لا يعلم ماذا فعل بنا. وللشاعر جَسَد أيضاً، ونبيذ، لأن للنشيد امرأة ونافذة. للنشيد فضاء. ولم يحدث أن انفصل النشيد عن الجسد بمثل الفجيعة التي تتمُّ في الحادث الفلسطيني الذي صار، من فرط ما هو

مألوف، تراجيدياً بطريقة غير مألوفة. فهل كان معين بسيسو - وهو يلتهم الحياة كما يلتهم طفلٌ جائع اجاصَةً - يدرك أيضاً أنه لا يمتلك مقعداً للموت؟

لقد كَلَّفنا بهذا الترتيب الإجرائي ليدفع كُلَّ واحدٍ منا إلى التفكير بتأمين قبره. إن المنافي التي فَتَّش فيها عن الطمأنينة - والطمأنينةُ في قاموسنا هي حرية الصراخ أو فوضى الانفجار - لا تُحصى بضربات قلب، إذْ كان دائماً يبتعد عن غزة فيصارع النشيد الذي لا يمتثل ولا يمتدُّ جسراً، فلا يكون الرصيف عندئذٍ إلاَّ إلقاء النفس في العاصفة، دون أن نُحَرِّك سؤالنا العسير: هل يستطيع الفلسطينيُّ أن يكون شاعراً؟

لقد قُدِّمت الإجابة على السؤال المُعدَّل: نعم، يستطيع الشاعر أن يكون فلسطينياً. وماذا يعني ذلك؟ يعني أن يتخبَّط السؤال الأول في المجرى العاصف، في المذبحة والوحشة والخيبة، في البحث عن شروط الكتابة وعادات لا تستوي، لأن الأوطان تُحمل في القلب، ولكن القلب لا يسكن النشيد، لأن النشيد لا يُصطاد ولا يُسْتَلهم؛ لأن النشيد لا يكون فينا غير ما هو فينا؛ لأنه ينزلق: مطالع يبترها الرحيل، مقاطع تتأرجح بين جنون الشاعر وواجبات الممّرضة، واستغاثة أفق لا يُغَطِّي أَحداً.

وها هو.. ها هو النشيد يدفعنا إلى بحث آخر: عن محطة الانفصال الفاجع بين النشيد والجسد، وكأن هذا الانفصال في حياتنا هو الالتحام الممكن لحياتنا، كأنه هو فضاء النشيد الممكن، أو اللغة التي لا تأتلف مع ظلالها المحروقة، لأن الجسد هو الذي يقول.. هو القول.

أنظروا إلى تألُّب معين بسيسو على الأمكنة التي لا مكان له فيها، لتروا غربة الروح في شكل لا يوافقها. إن سيرة المنافي والزنازين كما عاشها، ورواها، وانطقته الوضوح الحاد، والغرابة الخشنة، وجعلته أحد المعبرين، بامتياز، عن لعنة المكان الفلسطيني، هي سيرة الانتقال المعاكس للبطل التراجيدي من النصِّ إلى الواقع. إذ لا نستطيع أن نماثل بين ما نقرأ وما نعيش، لا في النص الماضي الذي روى عذاب غيرنا، ولا في النص الحاضر

الذي لا يستطيع مقاربـة عذابنـا . لا ، ليس لهـذا الـرحيل من مثيل . وليس لاندفاع هذه الخيول إلى هذه الهاوية ـ الجنة من موروث .

لذلك كان البطلُ فينا ، لا البطل التراجيدي ، هو مَنْ يقوى على مواصلة حلم مُسَيّج ببنادق الأعداء ، الذين تعددت أسماؤهم ، واختلطت لتُعمِّق حاسَّة الفلسطيني بأنه وحيد على هذه الأرض ، وحيد مع الأرض الوحيدة مع ذاتها .

إن معين بسيسو ، مواطناً بلا وطن ومنشداً بلا نشيد ، يمثل هذه الصلابة الخارقة ، صلابة الحلم في جسد يمزقه الرصاص من كُلِّ جهة ونظـام . كان يدرك أن المنفى يأخذه إلى منفـى آخـر ، وكان يدرك أنـه يدور حول غزة ، مجموعته الشمسية الخاصة ، التي تمثِّـل ملـكية أحلامـه الخاصـة وذكرياتـه الخصوصية ، ولا ترتخي قبضة يده الممسكة بجمرة الحلم . وكان يؤمـن بأن للقصيدة طاقة الملموس الفاعل .

لقد ضرَجَّته الخيبات ، ولعله كان أكثرنا انتباهاً لخطر الثورة المضـادة ولتربُص الأنظمة بالحلم ، فتحدى بشراسةٍ لا تُضَاهى . كان أشدنا شراسة في استخدام الشعـر في معـارك الدفـاع عن اليومـيّ الفلسطينـي ، وعـن الحلـم الفلسطيني ، وكان أشدنا بحثاً عما هو ليس بمألوف : ليس من حَقِّ سيبويه أن يتدخل في طريقة استشهاد الفلسطيني ، وليس من حَقِّ البرتقال الفولكلوري ، الذي كان يمقته ، أن يستعبد وجدان شعب ، وليس من حق الشعراء أن يتباروا على ما هو شكل وعلى ما ليس بواضح .

كل شيء واضح ـ كان يقـول ـ القاتل واضـح ، والضـحية واضحـة ، فلماذا الغموض؟ . كان يخلط بين الغموض والردة والهـروب . وكان يقيس الشعر بمدى فاعليته الراهنة ، وجماهيريته الشائعة ، لأنه عَدُوُ الغُرف المغلقة . لذلك ، كان يتفادى الانفراد بذاته الشاعرة . كان ينفر من المكاشفة الشعرية الداخلية ، فقد أَلقى بهذه الذات إلى العام ، إلى أدوات حكم الشارع ؛ إلى اليومي .

ولذلك ، أيضاً ، كان حضـوره كامـلاً في يوميات الحياة الفلسـطينية ،

الأمر الذي يُفَسّر امتزاج أدواره المتعددة، لتكون للشاعر سيادةُ المسرح. هاجس السبق هو هاجسه: بالأغنية، بالمقالة، بالمسرحية، بالبرنامج الاذاعي والتلفزيوني كان ينشب مخالب دوره في زمن سماه زمن الكلاب. يريد أن يهيمن على كل منعطف وعنوان، ليعيد للشاعر وظيفة سابقة ظَنَّها أفلتت من أيدي الشعراء، لنذالتهم من جهة، ولرداءة زمانهم من جهة أخرى.

يتحد الشاعر والسياسيُّ فيه في قبضة واحدة وخطاب واحد، لأن الشاعر يُطَوِّر فيه المناضل، ولأن المناضل فيه يُطَوِّر الشعر ليحلِّق بجناحيه: الشعر والموقف. الشعر ـ بالنسبة إليه ـ لا يُحاسب خارج دوره ورسالته، ولو كان جميلاً، فليس هنالك من جمال لا يفيد، جمال مجاني. والشعر الرديء، بالنسبة إليه، ولو تلبَّس دوراً متقدماً هو شكل من أشكال الثورة المضادة، إذ لا تستطيع فلسطين أن تغفر الاساءة التي تلحقها بجمالها، وعدالتها، قصيدة فلسطينية رديئة.

صرخ ذات مرة في وجوه الكُتّاب الفلسطينيين: قبل أن تكتبوا لفلسطين بالدم تعلَّموا كيف تكتبون بالحبر. وهكذا كانت قصيدة معين بسيسو دائماً بمثابة ذخيرة حية في معركة حية، متوترة، مباشرة، شرسة، وسبّاقة. وأنا لم أعرف شاعراً عربياً معاصراً في مثل هذه الشراسة. لا ينطقه غيرُ التحدي، ولا يتوهج إلاّ في المعارك. وهو محتاج دائماً إلى ثنائية: يحتاج إلى خصم محدد وملامح محددة، وكان أحياناً يحتاج إلي.. يحتاج إليّ للصداقة وللمبارزة. وأشعر أنه منذ التقينا وَجَدني.. وجدني طرفاً للمحاورة المباشرة أو الملتوية، طرفاً للاعتراف وللاختلاف. وكنا دائماً على سفر دائم، على ظهر موجة. وكنت أراقب فيه شهية حياةٍ مجنونة.

سنقترب، عما قليل، من صدمة عالية: ليس من حَقّ الحالة الفلسطينية أن تختار مهداً لولادة. نولد كيفما اتفق، وحيثما اتفق. ولكن، مضى علينا عمر طويل وموت كثير لنعرف مأزقاً آخر، إذ ليس لأحدٍ منا قبر. كان معين بسيسو، المجبول بشهوات كُلِّ ما يشير إلى الحياة، يتحاشى هذه الملاحظة. كان يهرب منها لأنه كان يخافها، أو كان مسكوناً بهاجسٍ آخر: أن يُعمِّق

ختمه على الزمن، وأن يضع توقيعه على كل مكان، أن يغرس شجرة، أن يترجم غزة إلى أكبر عدد من اللغات. أن يبني كوخاً من المطر، أن يجبل قامة من ريح. كان يطرد فكرة الموت كما يطرد ذبابة. وكان يمازحنا ويهددنا جميعاً بالرثاء. كان يكره الرثاء، ويمقت المشهد الفلسطيني اليومي في طابور الموت. كُلُّ أثاث الغياب مرميٌّ في سخريته الشهيرة: الجنازة، الملصق، كلمات الرثاء التي لا تشير إلى تعديل على اسم المسافر. . الأشياء ذاتها ذاتها ذاتها تتكرر. وكان يستثني صورته من المشهد، ويعبُّ الحياة والسخرية.

فهل كان انطباعنا السريع حول خُلُوِّه من فكرة الموت صحيحاً؟ لا أظن. . لأن من شاهد معين بسيسو، في أيامه الأخيرة، شاهد خدوشاً في تمثال الضوء. كان حزيناً كوقفة وداع منكسرة. لم تكن بيروت أندلُسَهُ كما قال، ولكن ما تعرضَّ له الحلم الفلسطيني على أيدي بعض حُرَّاسه وجّه إلى روح معين رصاصة الاكتئاب. لقد هرم قليلاً حارس النار. ولعلّه ذهب هذه المرة إلى ذاته التي كان يُحكم عليها إغلاق الرتاج واستعرض الشريط. حاول أن يحصي منافيه، وسكاكينه، فأخطأ وما زالت غزة تبتعد. .

وماذا يفعل الشعر؟ كانت أحلامه الشخصية الأخيرة هي أن يشيخ هناك: على ساحلٍ تخيَّله أرض الشهوة المحققة، أو القصيدة النهائية. لقد اصطدم بوحشة الروح، وتعب الجسد، وامتداد النشيد في أُفق ينغلق. وكان يكابر ويكابر. ومنذ البداية، منذ البداية البعيدة كنتُ أُفسِّر شبق الحياة فيه بخوفٍ خفيّ من موت لم يُعِدَّ له إطاره، فكان يسابق ما ليس لائقاً به ـ الموت، وذلك ما يشرح خوفه العميق من الطب، إذ لا يريد أن يرى صورة قلبه إلا في الكتابة. كان يعالج نفسه وأوجاعه بالتهام الحياة.

وحين كان يتجول بين قذائف بيروت كان يدرك أنه لن يموت لأنه لا يريد أن يموت؛ لأنه يكتب ويمتلىء حياة. كان موت الأشياء فيه يتمُّ في اللحظة التي يكمل فيها غناءه أو صرخته. كان الحب يضربه أحياناً بسيفٍ من برق، وكانت القصيدة هي التي تُشفيه ليموت الحب. لماذا سمّى عمله الأخير بهذا الاسم «القصيدة»؟ ألأنه كان عرضةً لإحساسٍ بالنهاية التي تُكَلِّل حياته بهذا العنوان النهائي؟

نعم، ليس من حق الفلسطيني أن يكون شاعراً ما دام مجهول المهد واللحد، فالفلسطيني ذاته هو القصيدة، هو النشيد المقطوع، وعلى غيره أن يصوغه أو يكمله، فهو مشغول باختيار وحيد هو اللحظة الممتدة من مهد لم تختره أمه إلى لحدٍ لا يعرفه؛ مشغول بصياغة حياةٍ تفيض عن أدوات العمل الشعري، وعليه أن يختار حياة الحرية في مكان ليس له، ليس له أبداً، وأن يؤسس مشروع الحرية ودولة الحلم ـ إذا كان للحلم دولة ـ على محطة قطار أو في قاعة انتظار في مطار، أو على رصيف ميناء؛ وأن يكون جاهزاً أبداً لرحيل آخر عكس الوطن وعكس الذات. فبم أُسيِّجُ ذاتي؟ ومن أين استمدُّ لغتي؟ لذلك لا يُرى الفلسطيني إلاَّ في جلوسه على لحظة الموت. لا يدلُّ علينا سوى موتنا. أما أن يحيا، أن يدخل في دورة المألوف البشري، أن يكتب شعراً، أن يحمل ورداً إلى امرأة ـ فتلك إدانة الآخر له، وعقدة الذنب فيه.

وهكذا لا يعتدي الآخر على حقِّنا في مكان، وعلى فكرة البطل فينا، بل يعتدي على الإنسان فينا، ويستشري الآخر حين يُجاوز مساحته ويدخل في «أنا» يَ ليمزقني. عليك أن تختلف، وأن تختلف، وأن تختلف لتكون ـ تلك مطالبةٌ تشي ببراءة وبنيّة اغتيالٍ معاً. لذلك يخشى الفلسطيني أن يموت في غرفة، لأن الغرفة إن لم تكن غرفة تعذيب تكون قفص اتهام. علينا أن نكون ملائكة أو شياطين، فهل تمَّ إدراك مثل هذا الظلم بتحويل الفلسطيني من إنسان إلى نمط؟ وهل يستطيع الفلسطيني بعد ذلك أن يكون شاعراً؟ نعم، يستطيع الفلسطيني أن يكون شاعراً إذا نهض من عقدة إثم الحياة والقدرة على فرح طائش، إذا ما تمرد على ما حوله، وما فيه، من نمطية، إذا عاش حياته وصاغها بتوازنٍ لا يتوازن إلا بانكسار أحد عناصر التوازن، كأن يهيىء للمطلق حاسّة تتعايش مع اليومي الذي يصعب التعايش معه، أو كأن يُجَنّ.

من هنا أقدم استغرابي ظاهرة انصراف الكتابة الفلسطينية إلى تمجيد الموت، الأمر الذي يُفَسِّر هشاشتها، لأن هذا الميل الشائع هو ابتعاد بريء عن مصدر القوة الروحية الفلسطينية وهي قوة الحياة. لقد عاش معين بسيسو في هذه القوة، وحاول أن يحيا، حاول أن يكسر محاولة الآخر تحويل الفلسطيني من إنسان إلى نمط. وهكذا كان ابن حياة تتوتر، وتبحث عن حياتها في الحرية.

يجلس على نظرتي إليه

ما زلتُ أمزِّق الصيغة المألوفة لرسم مشهد. لقد مضى الشاعر ساحباً تلفه عاصفته الخاصة، تاركاً لنا أن نتتبَّع آثار الشجر المكسور والنوافذ لمعلقة على فضاء؟ وتاركاً لنا أن نقرأ النشيد المعفى من تطابق مع الجسد، لنشيد الممتحن لذاته، النشيد العاري من أية حماية خارج قوته الذاتية؟ لنشيد الباقي بلا وساطة.

فتلك حرية القارىء الصغيرة، يحتاجها ليخرج سليماً من زحام الانطباعات، والالفة، وضغط الشاعر أو إلحاحه الذي أدمنّاه، ليتساءل: ماذا يترك لي الشاعر، لي أنا البريء، حين يخرج من نشيده، حين يُخلي مشهده الشعري من ضجيجه، وحين يُزوِّدني بقليل من نسيانٍ ينفع ذاكرتي؟

لست ذلك القارىء الذي يهددني، ويتوعد أي شاعر كان في وسعه ألا يكون فلسطينياً بشروط أقلها الجنون. فما أصعب أن يكون الشاعر فلسطينياً، وأصعب من ذلك ألاَّ يكون ما وَهَبَتْهُ اللعنة: فهو مطالب بسباق مع إيقاع اليومي وبإدراك لا يدرك بذاك الايقاع: مُطالب بالشرط ونقيضه؛ منبوذ، ملتبس، ناجح فاشل معاً سلفاً، مختوم، محكوم، مُدلَّل، مظلوم، متنازع عليه في الشعر كتنازع البورصة على وطنه في السياسة، كان يسأله قارىء بريء: ماذا ستكتب بلا فلسطين أو بعد فلسطين؟ وكان يسأله طالب آداب: هل أنت شاعر أم مناضل وأين الحدود بين الجوابين؟ أو. كأن تخرج اليد، من صفوف الجنازة، بنت شهيد لتطالبه برؤية أبيها في أول قصيدة قادمة، أو كأن تخدعه الأسئلة فيسأل: أهناك شعب يحب الشعر إلى هذا الحد؟ لا، ليس

ذلك هاجس الشعر بقدر ما هو تَلَهُّفُ شعب إلى الامساك بهوية وطنية يخشى عليها من الافلات. وجود يتفكك ويعاد تركيبه في وطن القصيدة ـ الهوية.

أين معين بسيسو من مأزقه؟ لقد اكتمل المقطع الفردي في النشيد العام؛ ولكنه لم ينفصل عن مجرى ما زال يجري فيَّ وفي المشهد. لذلك يصعب النظر من خارج. تحاصرني الصعوبة من كل ناحية، وتحاصرني أولاً حاجتي إلى صياغة هويتي الثقافية.. لأن هذا الحصار الذي أعيه يُحرِّرني من ذوبان لا أريده الآن؛ فعلى الشتات الفلسطيني أن يؤلف وحدة الاحساس بحالته ووعية بها قبل أن ينتقل إلى اختلاف أعلى، فنحن في حاجة غريزية إلى أرض خرافة؛ لنؤسِّس شرط تكوُّنٍ لم يتم تَكَوُّنُهُ في وعي سابق؛ وعي لم نكن وحدنا ضحاياه إلا بقدر ما كنا، أكثر من غيرنا، عرضة للتضحية.

لذلك لا نؤرخ حاضرنا التجريبي الممتد، لأنه يفتقر إلى مرجعية خاصة متبلورة. ألهذا السبب أمزِّق صيغتي المألوفة لرسم مشهد؟ ألهذا السبب لم أتمكن بعد من الكتابة عن معين بسيسو في الصياغة التي تتطلبها أطراف شخصيةٍ عاصفة تشير إلينا كما تشير حالتنا إليه بطريقة مُلخِّصة؟

رُبَّما؟

ولكنني أكابد صعوبة خاصة هي خصوصية علاقتي به؛ خصوصية تجعلني أمزِّق اقترابي من محاولة تفتيت شخصيته إلى عناصر. حتى وداعي له لم يتم لأنني لم أجد الغياب الذي يمنحني القدرة على تفقد ما فعلت بي العاصفة، وعلى النظر ـ من بعيد ما ـ إلى المشهد الذي وضعني فيه طرفاً في ثنائية كانت ترهقني أحياناً. لقد اختار سباق الخيول، وكان رهانه على اليومي. وكانت متعته أن يفتح الملعب للمتفرجين. وحين نلتقي، ويقدم لي قلبه على طبق الخيبة من الآخرين، كنت أنتقي أكثر الألفاظ رقة، أو خشونة، لأقنعه بسرية الكتابة الشعرية: هنالك ـ يا صديقي ـ فارق بين أن يكتب الشاعر عن الناس وللناس وبين أن يكتب قصيدة أمام الناس! هل كان من المجدي إسداء هذه الملاحظة لشاعر مليء بالمظاهرة والشوارع، مزدحم بهتاف متدفق؟ كلا، إذ كيف تلجم شاعراً يؤمن حتى التديُّن بأن للقصيدة قوة حركة، قوة حزب، قوة قادرة على التغيير الفوري.

كنتُ أغبطه. هذا الشاعر المتميِّز لا يصلح للسكون وفلاحة الكلمات. كان يتمثل ماياكوفسكي ـ كما أتاه مترجماً في لغة التبشير الثوري في الشعر ـ

وهو يبتلع الشوارع . يخوض معاركه الأدبية بموهبته الفذة، وقميصه الأصفر، ويديه إذا لزم الأمر ضد نقاد الصفحة الأدبية في «برافدا». هذا الشاعر لا يصلح لترويض نفسه ولغته والتساؤل عن إشكالية دور الشعر، لأنه لم يُخْلَقْ للداخل ومراجعة الذات. ينقضّ كما الطلقة لأنه لا يستطيع أن يعترف باللحظة التي التبست فيها فاعلية القصيدة وفاعلية العمل . القصيدة ـ قصيدته تقود، هنا والآن، حركة شعب . لقد اعتاد ذلك . القصيدة هي القراءة الحالية بتفاصيل شروط إنتاجها الآنية . القصيدة هي لحظة الحاضر الصارخة، وهي التي تحدد طريقة قراءتها من زاوية واحدة، فاما أن تستجيب واما أن تخيب .

وكنتُ أغبط هذا الإيمان الذي يُسلطه عليٌّ اتهاماً. ولم نفترق . كنا نذهب إلى الدعابة . ولماذا نفترق ما دامت السنبلة تدل على القنبلة؟ هكذا كان يمزج الأصدقاء. تداعي القافية يتطابق مع وصف ثنائية . وها هو معين بسيسو يجلس هنا على نظرتي إليه، فأخفي عنه قصيدة الرثاء التي لم تعجبني لأنها لم تلتقط ما فيه من نحل ومفارقات. بدلاً من ذلك يأخذني إلى كل قطار . لا نستطيع أن نحكي عن سفر إلاَّ وكان أحدنا شاهداً: لم يكن رسول حمزاتوف معجباً بشعرنا ـ كما ظن معين ـ حين ألحَّ علينا أن نصعد معه إلى أعلى جبال آسيا الوسطى، مزداناً بأوسمته التي حطمت تقاليد البيروقراطية واستطاعت أن تفتح المقهى. شعر معين بزهو. ولكن ما كدنا نجلس على المقاعد حتى بادرنا حمزاتوف بالسؤال: من أين أنتما؟ لم يصدق معين بسيسو أن شعره لم يدل عليه، بل دلت عليه المرافقة الطويلة التي أعجبت حمزاتوف فدعانا من أجلها! قال لي معين: في المرة القادمة سأثق بريبتك! ولم يغادر حمزاتوف المقهى إلا بعدما أجهز على الكاتب الهندي سجاد ظهير، أجهز عليه بمزيد من كؤوس الكونياك الأرمني. وكان عليٌّ حين ترأست جلسة المساء في مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا أن أعلن أن سجاد ظهير استشهد اليوم وهو يدافع عن مبادئنا! لم يعرف معين كيف يميِّز بين البكاء والضحك لجريمة حمزاتوف البريئة إلا بعدما أجهز على صديقه يوري الذي لقي مصير الهندي بعد أيام. ومرة أخرى، لم يصدق معين ريبتي حين قال بزهو: أنظر كيف يعاملون الشعراء؟ وهو يتقدم من فتاة جميلة تحمل الورد على رصيف محطة القطار في تالين استُونيا لتأخذنا إلى الفندق. بعد قليل اتصل بي معين ليقول: نحن في ورطة وعلينا أن نغادر الفندق فوراً، فتلك الفتاة استقبلتنا باعتبارنا راقصين من كوبا! قلت له: لن نخرج إلى ثلج يبلغ ارتفاعه مترين حتى لو

كلَّفنا ذلك أن نرقص. فلنرقص إذن، ما الفارق: راقصان من كوبا أم شاعران من فلسطين؟ و.. ومفارقات وسفر.. وسفر.. ومرايا تحمل وجوهاً أخرى..

...وكان معين بسيسو يحيا حياته كُلها، في لحظة، من أجل قصيدة يعيد إنتاجها حياة يحياها باندفاع وشغف. كان يخترق حصار بيروت ليبقى تحت الحصار: ليكتب قصيدة الحصار، ليحقق هوس التطابق بين الشعر والموقف، وبين الموقف والموقع، لأن الموقع عنده هو الجوهر، هو معيار الحقيقة والصدق والشعر. وكان يكتب القصيدة ليصمد في بيروت، ليخلق أسباب حياة لا يعتقد أنها هبة بقدر ما هي إنجاز. كان يخلط الواقع بشكل التعبير عنه ليوتِّر ذاته، ليجدها، ليبرر ويفسِّر ما لا يُفسَّر من طاقات المقاومين. وكان مسكوناً بهاجس أن التاريخ قد يتفرَّغ لمراقبة الشاعر وللبحث عن التناقض بين موقعه وبين شعره. دور الشاعر هو أحد المفاتيح الأكثر أهمية لفهم تميّز شعر معين بسيسو، فحين يجد دوره يجد صوته. وكنت أغبطه، كنت أغبط كيفية تفجر طاقاته كلها، الشعرية والإنسانية، في المعارك الساخنة. هناك يولد دائماً وهناك يعثر على سره. هناك يصدق المواطن الشاعر فيه. هناك تأخذ «الكذبة» الفنية معنى التطابق الكامل بين القصيدة والواقع في عملية تفاعل معاكسة، إذ يصبح الواقع هو انعكاس القصيدة لدى معين بسيسو. فمن كان قادراً على إقناع معين بأن الاسرائيليين قد يدخلون بيروت؟ كان يفقد صوابه لا لسبب إلا لأنه خلق واقعاً حين قال لهم: «لن تدخلوا بيروت». لقد تحوَّل القرار الشعري الذي اتخذه الشاعر لاستنفار روح مقاومة إلى قوة مادية لا يمكن اختراقها. وهكذا قد يكذب الواقع لتبقى القصيدة على صواب. وحين اهتز صمود المطلع الشعري أمام عنف القصف الجوي والبحري والبري ارتبك الشاعر خوفاً من هزيمة صرخته، فخرج يبحث عن أمل أسطوري، راح يتطلع إلى البحر لعله يحمل النجدة للقصيدة! ومن كان من قبل قادراً على إقناع معين بسيسو بأن قصائده اليومية، الساخنة والجميلة، أثناء حصار تل الزعتر لا تُغني المحاصرين في المخيم عن الماء والغذاء والذخيرة؟

لقد خلق الشاعر وهمه الخلاَّق الضروري لتفجير ذاته الشعرية، من الموقع الذي اختاره، فهذا الوهم الجميل كان أداة من أدوات التنقيب عن

القصائد. وإلا، فكيف يكتب الشاعر إذا فقد الإيمان بفاعلية الكتابة ـ الاستجابة؟ الفاعلية ـ لا الجمالية. الآن ـ لا التاريخ. هنا ـ وهنا فقط هي أدوات تطابق القصيدة والموقع الذي هو شاغله. وأكاد أقول إن قوته الأدبية ـ والاعلامية ـ في المعارك الحادة تعود إلى قوة إيمانه بدور الشاعر التي تتجاوز اهتمامه بجمالية الشعر. وأشهد أنني كنت أعارض دائماً تقليدية طرح السؤال في كل معركة: والآن، ما هو دور الشاعر؟ وكان معين بسيسو يُعفينا من هذا العذاب. كان يقدم جوابه الخاص نيابة عن كل الشعراء. فهذا هو الشاعر، وهذا هو دوره، وها نحن نتبرأ من التقصير..

شاعر الدور، وشاعر المبارزة، دون كيشوتي الدلالة النقدية، ضد هذا السائد في الخطاب السياسي الرسمي الأجوف. لعله، أو أنه أكثر الشعراء العرب المعاصرين هجاء لمساحة الطلاق المكشوفة بين الواقع العربي وبين خطاب هذا الواقع كما يقدمه النظام. لقد أشهر كل أدواته الهجائية، من صفات الحيوان إلى مزايا الطبول، ليشهد بكل هذا الكذب، كان شاعر الرازحين تحت نير هذا «الاستقلال» العربي. كان يحطم الأصنام السياسية، وكان يحطم أصنام الشعراء لأنهم يكذبون بطريقة تختلف عن طريقته هو في الكذب. فكذبته الفنية تتأسس على ما في شعر اللحظة الراهنة من طاقات تفجير وتغيير، بينما تتأسس كذبة سواه على المستقبل الكامن في القصيدة، فاعلية وقراءة. وهذا الشاعر الذي أراد أن يكون فارساً كان يقاوم فروسية سواه. إذ لم تكن فلسطين فرسه العرجاء، لذلك كان خصماً لرداءة الكتابة الفلسطينية عن فلسطين، ولكل رموزها الجاهزة. كان يريدها قصيدة هاربة هو فارسها، ويرفض جلوس الثورة على مقعد السلطة. هكذا يقول شعره، دون أن ينسى الدفاع المستميت عن استقلال الإرادة والقرار الفلسطينيين، فسيادة فلسطين للشعر، على الرغم من أنه كان سياسياً في الشعر، وشاعراً في السياسة. كان يقول السياسة شعراً، ويقول الشعر سياسة. هدم حدود التمايز بين المستويين، ليوحد طبيعة نشاط من الصعب أن تتوحد مع خصوصية نشاط آخر. هل فعل ذلك استجابة لصعوبة أن يكون الفلسطيني شاعراً؟ أم لاختلاط حدود العمل الفلسطيني التي تطالب الشاعر بدور مباشر في شروط هذا الجحيم؟ أم لأنه لم يتمكن من الاعتراف بوجود شعر خارج النضال المباشر؟ أم لأنه وقف في المرحلة الأولى من أسئلة الشد والثورة. كان يراوح بين شروط خاصة لعالمين يلتقيان ولا يتطابقان، ولكن كان يحاول أن يحدث

عملية التطابق شبه المستحيلة، لأنه كان يريد أن يصون حضوره الدائم في قلب المشهد حتى تحول هو نفسه، بشعره ونشاطه ومفارقاته، إلى مشهد.

وما زلت أمزِّق هذه الصيغة المألوفة لرسم مشهد، فالعاصفة لم تهدأ وما زالت الأشجار تنحني وتقف، وما زال هو يجلس على نظرتي إليه: «هذا ليس أنا. حاولني من جديد. أكتب وداعاً آخر». لعله يريد كمال صورته أمامنا. نعم، هذا المشهد ليس هو. سنحتاج إلى قليل من الغياب لنرى بشكل أوضح. وهو يرفض أن يتزحزح. لقد حوَّل حياتنا إلى خلية نحل ذات طنين. كان الخبر اليومي وصانع الخبر. وكاد يقتلني أكثر من مرة، لا كما قتل حمزاتوف سجاد ظهير، فقد استلَّ مسدسه، ذات مرة، ليحسم نقاشاً مع قارىء خبيث قال له إن المحاصرين في تل الزعتر محتاجون إلى الماء أكثر من حاجتهم للشعر، فمرت الرصاصة ـ فوق كتفي. ومرة أخرى حين وضع على باب غرفته في لندن شارة «رجاء عدم الازعاج» لم يزعجه أحد. ليموت على مهل، فنبَّهني إلى أننا قد ننجو من القذائف لنقع في غدر القلب، لنموت بطريقة أزعجت خالد بن الوليد. شكراً لحاسة النسيان الضرورية للحياة. ومنذ وضع تلك الاشارة نزعتُها من أبواب غُرفي في كل الفنادق. أريد من يزعجني وأنا أموت. ثم ناداني كثيراً إلى أن انقضَّ قلبي علي. سألني الطبيب: ما هي العلامة الأولى لإصابتك؟ قلت: شعرت بأن قلبي يناديني... يناديني منذ شهرين؟ سأل الطبيب: هل فقدت عزيزاً؟ قلت: نعم، فقدتُ معين بسيسو. قال الطبيب: من حسن حظك أنك وجدت من أزعج غيبوبتك. هل تعلم أنك مُتَّ لمدة دقيقة ونصف... ما هو لون الموت؟ قلت: أبيض!

أما زال معين نائماً في ذلك البياض؟ أما زلتُ أحاول وضع المشهد في مشهد؟ سأحاول مرة أخرى... وسأمزق هذا الورق...

١٩٨٦

هكذا كتب السجين قصيدته الأولى عن القدس

● لماذا القدس الآن؟

لأن الذين يبحثون عن الطفل، الليلة، لن يجدوه في المغارة قرب بيت لحم.

مطر واجراس، شموع ونبيذ، مطر وجنود. اجراس كثيرة تدق في البعيد الذي يعتقد أن الميلاد قد بدأ. أما الأجراس القريبة فتختبيء في الصدأ لأن الميلاد لم يولد، ولأن المغارة محاصرة بالبنادق.

هو في القدس أوضح
وهي فيه تذبح،
ولكن حجارتها أعطت لرائحة البخور لوناً، لأنها بيت الروح.

لماذا القدس؟

لأنني لم أتمكن من احصاء التلال التي يدخلها الزائر من جرح قديم، كما يدخل اقبية القلب.

ولأنه، هو، لم يولد إلا من دمه.
● أمن هذه الحجارة تأتي الريح؟
ـ ومنها أنْحَتُ القلب وأعلِّقُه على هيئة الصخرة الطائرة.
لتنسني يميني إذا نسيتك يا أورشليم

● وهل نسيت؟

ـ أنا لا أعرف القدس!.

●

لم أكن قد شربت قهوة الصباح حين اقتحم غرفتي ضابط اسرائيلي يلفظ الحروف الحلقية بلهجة عراقية: لماذا لم تقدم نفسك للشرطة؟

● لم يطلب مني أحد ذلك

ـ كان عليك أن تتطوع. نحن الآن في الثاني عشر من حزيران، الحرب توشك على الانتهاء وما زلت طليقاً

● كيف أكون طليقاً في هذه الغرفة؟

ـ لا تتفلسف، وأمش امامي، فإن جنودنا قد حرروا القدس

● ممن حرروها؟

ـ من الغرباء، وعادت كما كانت يهودية

● وماذا بعد؟

ـ ستكون محررة إلى الأبد

● سيدي الضابط أنت غبي!

ـ سيدي الشاعر أنت حالم!

على درج السُلَّم الحجري ودَّعتني عيون الجيران بشفقة لم أفهمها، فتلك الزيارة كانت عادية. كنا في تلك الليلة السابقة قد بكينا معاً لسقوط القدس. كان الكهنة ينفخون في الأبواق ويفحون كالأفاعي، وكان الجنرال يختلط بالكاهن ويأكل الحجارة. كانوا ينطحون حائط المبكى، وكان عبد الناصر يعلن الهزيمة ويستقيل. وكنتُ أهبط الدرج برفقة الضابط وأربعة جنود إلى سجن معلَّق على قمة الكرمل.

لماذا القدس؟

لأن بيت لحم لم تعلن الميلاد، لأن المغارة محاصرة، ولأني أرث

القدس كما أرث الهزيمة، ولأني أعرف كفرقانا كما أعرف دمي الذي حوَّله الغزاة إلى ماء،

والليلة عيد الميلاد

والليلة قبل الميلاد

●

ما أجمل هذه الزنزانة. كأن حزيران لا يصل إليها، كأنها الدليل الوحيد على أن الحرية لم تقمع تماماً كل أصدقائي هنا. يهجمون عليَّ كما يهجمون على البشارة. وعبر الدخان الأبيض، أعني دخان سجائرهم أعلن بانكسار: لقد سقطت القدس وانتهت الحرب. أتحوَّل إلى غراب، ثم يصفحون ويصافحون. ونصير مسيحيين إلى حدّ الصلب وتحوُّل الانسان إلى فكرة.

وكثيراً ما أسأل: لماذا يأخذك المسيح إلى هذه اللغة، وأنت من أنت؟

وكثيراً ما أجيب: هذا هو تاريخي، أي هذا هو بلدي.

وكثيراً ما أسأل: لماذا الصليب؟

وكثيراً ما أجيب: هذه هي دلالتي، أي هذا هو جسدي.

وأظن: لا تكتمل معاني المسيحية، في تطابقها الراهن، إلا في الفلسطيني. ولا يحق لأحد أن يكون فلسطينياً في هذه الدقة إلا للمسيح الذي جعل هذه الأرض قادرة على تقديم عطاياها للعالم بلا عبادة. إن سيرة عذاب المسيح يلخصها الآن أطفال فلسطين المسروقون من المغارة إلى الصحراء، وتلخصها قيامة الفلسطيني من ذبح يتكرر على أيدي الأعداء وأنبياء الكذب على السواء. وسواء دخلنا في طقوس الايمان أم لم ندخل، فإن يسوع الناصري تراثي ومواطني وقاموسي وتطابق حياتي المعاصرة ووعدي بالخلاص. «ولد لكم مخلص..» أليس نور الطلقة الفلسطينية في هذا الليل الحزيراني إشارة الخلاص للمعذبين الفلسطينيين والعرب ولمعذبي المسيحية الغربية المتحالفة أو المتسامحة مع قاتل المسيح الجديد وقاهر القدس؟

وحين أخرج من جسدي إلى الشهادة فأعطي الحياة للجميع ، كحبة الحنطة حين تموت ، ألا أسير في خُطى المسيح . وحين انفض عن السلام شوائبه الزائلة واعد الجميع بالحب ، ألا أعلن بدمي رسالة الناصري .

وألف سؤال وألف جواب مطابق .

وهذه الأرض التي ولد عليها ومات عليها ألا تستحق القداسة لأن الفكرة فيها كانت تحتاج إلى تجسيد وإلى وطن؟

إننا نسخة معاصرة عن هذا الدم الذي أضاء العالم ، وخطوة جديدة في هذه السيرة ، وعلى خطى قدميه المتعبتين في الناصرة وبيت لحم والقدس وكفرقانا نمشي . . .

ولكن الذبح يزداد ، والقدس تسقط ، فننزع مسامير الصلب عن أجسادنا ونحوّلها إلى بندقية ، لندافع عن وطن الفكرة وأرض الناس ونعمة السلام المهان ، ولنحرر هذه الأرض من الذين سفكوا دمنا الواحد .

●

البندقية ، هكذا علمنا حزيران .

البندقية ، هكذا علمتنا اللهفة على أمة قتلت باريها! . .

●

بعد شهر قال لي سجاني : إذهب فأنت حر .

لم أذهب من السجن إلى بيت أهلي ، بل ذهبت إلى قطار القدس .

● إلى أين أنت مسافر؟

ـ إلى زيارة أهلي في القدس قبل أن يجلو الاحتلال ، وأنت؟

● إلى القدس لأضيء قلبي بحجر ، أو لأهرسه بحجر . كيف نطأ سماءً نزلت إلى الأرض تحت بنادق الاحتلال؟

ـ ماذا نفعل . سيأتي صلاح الدين .

أتذكر: سيدي الضابط أنت غبي. سيدي الشاعر أنت حالم.

من نافذة القطار أرى بلادي، أرى الأرض التي لا تكترث. هذا هو الساحل الفلسطيني، أو الساحل السوري، مغروس كخنجر من الياسمين في البحر. يُقدّم اليك النخيل والبرتقال والأنبياء والغزاة في قبضة واحدة. نتساءل: ما هي الجنة إذا لم تكن هذه البلاد. وما هي اللعنة إذا لم يكن الخروج. أين هبط آدم المعاقب؟ ـ على قمة جبل هندي. آه، لو رماه الله هنا لما أحس بالندم، ولما طلب التوبة.

تتألب عليك القصائد كما يتناوب عليك الغزاة، فليأخذوني إلى الاعتقال. من أجل هذا الجمال الذي لا أعرف أصعد الصليب ثانية «لأن الرب هو الروح، وحيث روح الرب هناك الحرية». ولكن كيف أرى أورشليم التي أعدوا لها الأغاني قبل أن تسقط «يا أورشليم من ذهب ومن نحاس وضياء». أتبنّى مطلع النشيد وأرمي سائر الكلمات في سلة المهملات. ولا تكون القدس شمس الجميع كما يرى البابا الذي وجد حلاً في هذا التشبيه البديع: كالشمس يراها الرائي فيحسبها ملكيته الخاصة، ويراها الرائي المضاد فيملكها أيضاً، وهكذا تكون القدس لكل فرد ولا تكون لأحد. لا، كيف تكون القدس لمن يهدمها ويسرق أنبياءها ويشرد أهلها ويصلب فتيانها.

القدس شمس السلام العربي: «هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها، ألاّ تسكن ولا تهدم كنائسهم ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها ولا صليبهم ولا شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم..».

●

لماذا القدس الليلة؟

لأن الطفل سرق من مغارة بيت لحم، وعُلِّق على خشبة هنا قبل أن

يولد. ولأني لا أعرف القدس.

«وقد نرى تقلُّب وجهك في السماء فلنولّيك قبلة ترضاها فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره».

وعن النبي محمد: «من صلَّى في بيت المقدس فكأنما صلَّى في السماء».

والقدس لا تصلّي الليلة
القدس تُصلَب.

●

خمس جنديات، أعرف إحداهن، تحتل ساحة القدس. بنادق رشاشة خفيفة، تنانير قصيرة، وألوف السياح.

أسأل عابر سبيل هل هذه هي القدس؟
- نعم، هذه هي القدس
● أين نكهة التاريخ.. أين النار التي تحكُ الدم؟
- في الكتب
● ماذا حدث؟

- لا شيء. سمعنا الرصاص في الأزقة، لم يكن معنا سلاح، فرفعنا الملابس الداخلية رايات سلام.

● هل أنتم العاصمة؟
- في الماضي والمستقبل. على أي حال، هذه سمة العواصم.
● ما هي مهنتك يا أخي؟

- بائع متجول، أبيع الصحف العبرية والمعلبات الاسرائيلية بأسعار منخفضة.

اقتربتْ مني الجندية وقالت: متى أراك؟
- عندما تخرجين من القدس

● أنا سأخرج، ولكن الجيش لن يخرج

ـ لن أراكِ

● ما زلتُ أحبك

ـ إرمي هذا السلاح

● خذه وقاتلني

ـ لا أستطيع

● لا أحبك إذن.

مشيت إلى المسجد الأقصى فكان غريباً، ومشيت إلى كنيسة القيامة فكانت غريبة. فذهبت إلى قطار حيفا في الغروب، وكان البحر من يافا إلى حيفا على يساري أسود.

●

القدس في القلب. القدس تفاصيل أنبياء وشهداء. حجر إذا عاد إلى عناصره الأولى رشح الهة وتراتيل وسُوَراً. القدس كتاب البشر.

والليلة يهطل المطر. الليلة تدخل الأجراس في الصدأ لأن الميلاد لم يبدأ، لأن القدس عاجزة، تحت القهر، عن اختراق الناس إلى المعنى، لأن المسيح يرفض هذا الميلاد الاحتفالي، يرفض هذه الشجرة المضيئة بدموعه ودموع ابناء فلسطين، ويرفض هذا النبيذ الممزوج بالدم. فحين يولد العدل وتولد الحرية ويولد السلام يولد المسيح.

القدس الليلة في ذروة الهزيمة، لأن أهلها غرباء في كنائسهم ومساجدهم وبيوتهم، غرباء في أنبيائهم، أسرى في منافيهم. والبشارة تطحنها الدبابة على باب المغارة، والطفل ليس في المغارة وليس في فلسطين.

● هل كتبت القصيدة؟

ـ لا، لأني لم أجد القدس

● ما هي القدس؟

ـ رمز

● ما هو الرمز؟

ـ جرحي في أول الليل

● ما هو الليل؟

ـ أن انكسر

● ما هو الانكسار؟

ـ أن تذهب إلى القدس في أول الاحتلال

● هل ذهبت بعد ذلك؟

ـ لن أذهب، لأنني خائف

● ممَ؟

ـ من ضياع المعاني، فالناس بشر لا أساطير والقدس في القدس مدينة لا خرافة

● والصخور؟

ـ صخور

● والريح؟

ـ تهب من القلب، فتفكِّك الحجر

● هل كتبت القصيدة؟

ـ سأكتبها في الميلاد القادم إذا وُلد.

أيتها القدس!

كم أنت بعيدة عن القدس كم أنت عبادة!

١٢/ ١٩٧٩

حجر من الجليل

«رسالة إلى صديق في الجليل في يوم الأرض»

لا أعرف لمن أُعزّي القلب في هذا اليوم. يغريني بياضُ هذا الورق بالبوح. ولا أشتاق اليك لتنصرني على الوحدة، بل لنمشي قليلاً في النوم، حيث كانت مشيتُنا المشتركة في أول الصعود، أو الهبوط، ترسم الجليل مطلعاً للأرض.

اليوم هو يوم الأرض. لا أدري كيف استمع إلى هذا النبض الذي يشبه الحشرجة، فأضرب روحي على قفاها ضربةً خفيفة لتهدأ. هو اليوم الذي يستولي على أيام عمرنا كُلِّها، لا ليكون للأرض عمر ـ فذلك أمر لا نريده لها ولا نريده لنا ـ بل ليكون لعمرنا أرض كسائر البشر والطيور أو الزواحف. وليكون للأرض سياجٌ من فضاء نعرف داخله أن صياغة الحياة ـ كما نريدها ـ ممكنة وبسيطة كعملية تنفُّس، وأن الحرية في صياغة هذه الحياة ثمينة إلى درجة نرتاح معها، ولو قليلاً، من وضعها مرادفاً أو نداً دائماً للموت. فقد آن للموت أن يموت أو يعوِّض، وآن له أن يكفَّ قليلاً عن مؤآخاة الحرية بلا شروط. لا لأن الشهداء سيخلون الساحة فيكبر الفراغ، ولا لأننا تعبنا، بل لأننا نستحقُّ أن ننتصر.

يا ليوم الأرض، مهرجان شقائق النعمان التي تخطف دمنا فتصطف جروحنا على جانبي طرق لا أراها الآن. يا ليوم الأرض الذي يجدِّد ولادتي،

لكي لا اميِّز بعد الآن بين جرحي وزهرتي، ولا أميِّز بين فضاء يتمادى وكوخ يصغر عن نبتة. إني أمتثل إلى رائحة جنسية تطلع من جذر صُبَّيرة تتفسَّخ. وأنصاع إلى ما يُحرِّم الندم. هل نحن من هذه الأرض، هل نحن من هذا الملح ونتشرَّد حتى الذبح؟

وُلدت هناك. ولم أكبر إلا ليلتبس عليَّ الأمر: هل كانت الصخرة هي التي أنجبتني أم امرأة من زيتون؟

لا تسألني. لا ترد عليَّ لتسألني إن كنتُ قد بلغتُ عمر الالتفات إلى وراء، لأداعب الماعز الذي يتموَّج على السفوح كشعر امرأة يتسرَّح، يعلن الليل أو انتهاءه على جبل الجرمق. ثق أنَّ لي ذكريات أُخرى تتكون ولا أُربِّيها لئلاَّ تكون العلاقة ماضياً يبتعد. ولكن للقلب بئراً ينزل إليه ليشرب. فهل تسقيني الأرض، في يوم الأرض، قطرة من ماء يغسل كل خطيئة ممكنة؟

هناك - أعني حيث تُسند ظهرك الآن إلى خنجر أو وردة ضخمة - ولدت. أرى تماماً كيف كانت الأرض تخرج من البحر، عبر انقاض سور تآكله الطحالب في هذا الموسم، وتتّجه شمالاً.. شمالاً إلى شمال لا ينتهي إلا عند حدود الله. هناك الجليل، بين البحر والله، زيتون نقش عليه الرومان معاركهم الكبرى. صخر. عشب يُطلع زهراً أزرق. مربعات فوضوية من البرقوق. ريحان. تصادُمُ أودية وتلال. تصادم جماجم وتيجان. ولا يمشي المرء ألا ليصعد ويصعد. يترك أثراً يمحوه أثر آخر. كأنَّ الخطوة دائماً هي الأولى. وتعرف قصة الحبِّ الأولى لألف شهيد على الأقل. أما زلتَ تشعر أنك أول إنسان جاء إلى الأرض من قمة جبل هندي؟. وكأنَّ السماء لحافٌ شخصي لم يستعمله أحد من قبل. أما زلت تصعد تصعد حتى نهايات الجليل التي تغريك، على حين غرة، بهبوط تحت سطح البحر، فلا تعرف متى انتهى صعودك ومتى بلغتَ بحيرة طبريًا!

ألم أكبر إلاَّ ليلتبس الأمر عليَّ؟

هل كان المكان من صلصال أم كان غيمة تحملك وتحملها؟ أرجوك أن تتأكد لئلا يطول غيابي. أرجوك أن تخرج الآن من الباب لتحمي الفخَّار من الانكسار الذي تهدِّد به شهواتي المكبوتة..

كنتُ أتساءل: متى تعرفت إلى الكلمة الأولى، متى نطقت؟ فتجيبني أمي التي لا تتكلم إلا لتنهر: إذهب إلى الحقل ولكن الحقل محاصر بالثعالب والبنادق.

أما زالت سيِّدة الزيتون، أُمي، تدخل غابة الزيتون سرًّا في نهاية الخريف لتلتقط ما أهمله الآخرون من زيتونها ومن شعرها على الشوك! . . وأبي يندم على رحلته الوحيدة إلى لبنان، فيعلّمني القراءة والكتابة لكي لا أندم مثله.

هذا هو الجليل. ولا أسأل نفسي كثيراً إن كنتُ أندم. ولكنَّ يوم الأرض لم يحوِّلني ـ كما أردت ـ إلى حشرة سعيدة تنام على لحاء شجرة في الجليل. لماذا؟ ألأنَّ الأرض ما زالت تؤثر الدم على النداء، أم لأن العمر قصير فلا تبدِّل سكانها في مثل هذه السرعة؟

إني أتنقَّل من مدينة إلى أُخرى ومن قارة إلى قارة، كما تنتقل المومس من رصيف إلى رصيف. أُحوِّم مثل نحلة فلا أقع إلاَّ على طحلب لزج. أُؤَلِّبُ عواطفي كلها لأنجو من توبة لا أُريدها، لأن الأعداء يحتاجون أصواتنا المنكسرة، فأخبيء جراحي في جيوب معطفي وأصمد لابتسامة. وسأقول لك . . سأقول لك وحدك إني اغبطك على حارس لا تأذن له بالنوم، وعلى زنزانة لا تتسع للأسئلة. وأُحبُّ دائماً أن أقول إني أبتعدُ لأقترب! وهل حدث أن اقترب من ابتعد؟ وهل عاد من هاجر؟

وهذا هو الجليل يغطِّي وجه السين والتيمز والدانوب الرمادي. فهل أُشهر شهادة ميلادي في وجه هذه المرايا المتألبة عليَّ، لأسْتَرِدَّ الفرح المتربِّص بسواي؟ ولدت هناك. ولدت هناك. هكذا أواصل البحث عن جدوى أي شيء قد يجدي. أمن عشر سنين لم أُولد ثانية هناك؟.

أردُّ على موت لا يقهرني ولا أقهره: ولدت هناك. وأدور فلا أُسدِّد خطوتي إلا في اتجاه الدم الأول. وهنا يتشابه هذا المسرح الذي يعجُّ بكلمات انفصلت عن معناها لأنها تقال في سياق آخر، وتنفصل عن قائلها تماماً تماماً.

وُلدت هناك معك. وُلدت على تلة تبسط ذراعها الغربية فتحمي حقلاً واسعاً من النزول إلى البحر. هناك مرَّ الغزاة وأكلوا من خوابينا وماتـوا في مقابرنا. وبنى الجنود الفرنسيون تلة ليقفزوا منها إلـى ساحـة عكا المنيعـة. ولدت على تلة تبسط ذراعها الشرقية فتصطدم بالسماء، تكسر غيمة. تجرحها. يسيل ماؤها على حجر فيرتعش ويزهر.

- ألا تبدأ إلا من هناك؟

□ لأني لا أموت إلا هناك

- وهذا الموت الكثير؟

□ ليس أكثر من إحصائية

وهناك تساءلت: ماذا تفعل هذه الطيور؟

قالوا: تهاجر

قلت: إلى أين؟

قالوا: إلى الشمال

قلت: ماذا يعني هذا الأمر؟

قالوا: إنها بوصلة الفصول، فيعرف الأتراك أن الربيع قد بدأ.

قلت: وتموت هناك؟

قالوا: تعود على الساحل إياه. تعود متعبـة، فيبسـط لهـا المصـريون الشباك. ويعرفون أن الخريف قد بدأ.

لم أكبر إلا ليلتبس عليَّ الأمر...

وهذا هو الجليل. هذا هو يوم الأرض. ولا أسـألك: كيف تغيرتـم؟ فأنتم أيها الأسرى الأحـرار لم تتغيّروا. ولـكن الآخـرين تغيَّروا من فرط ما هزموا. ألا نلتقي إلاَّ على هزيمة. ومن أي قلب أبوح؟ هل تذكر كيف كنـا نعانق أخوتنا القادمين إلى أسرنا المشترك، فنبكي ونضحك لأن السجن يجمع شمل العائلة. نقولها في القلب لئلاً يسمعها الغزاة فيقولون إنهم حررونا من الجدار. تبًّا لهذا الزمن!.. ألم تغضب الأرض من قبل! ومتـى كفَّـت عن الصراخ، ولكن صراخ الاذاعة كان أقـوى. ألـم نمتْ من قبـل في سهـل

البطوف. لماذا يستمعون إلى دمنا الآن؟ لماذا تسكت القارة العربية.. تسكت تماماً لتستمع إلى دمنا الذي يسندها من السقوط. أيها الراسف في الأغلال . . حرِّرنا من القلعة! أيها المسجَّى على مدخل سخنين . . مُدَّ جسدك متراساً لحماية نفط العرب من النهب الذي يدير محرِّك الطائرة التي تحرقنا!

ولم أكبر إلا ليلتبس الأمر عليَّ . .

لأرى كيف يتقنَّع فرعون مصر، ويتسلل من بين الصفوف، فتُصاب القارة بالذهول والعجز. ولأ أحد . . لا أحد غير صبيّ في الجليل يحمل حجراً فلا ينسف دبابة فقط، بل يهدم الهيكل. حجر واحد من الجليل يعادل ألف دبابة يعلوها الصدأ في صحراء العرب. قال لي أحدهم : أنتم تهدِّدون بسلاح ليس لكم، وبنفط ليس لكم. عليكم السلاح والنفط عليكم. قلت: نحن نهدِّد بسلاح آخر. . نحن نهدِّد بسلاح لا يصدأ. نحن نهدِّد بحجر من الجليل.

هو يوم الأرض، الأرض التي هي الموضوع والانسان، هي الصراع كلّه . الأرض التي لم يتمكن الغزاة من تدجينها ولم يتمكنوا من حُبِّها. وها هم يهربون من الأرض إلى المكتب، يهربون من الأرض إلى سيارة تاكسي في نيويورك، يهربون من الأرض إلى الدبابة التي صارت وطنهم الوحيد. كم من مستعمرة زرعوها فتقيَّأتها الأرض. كم مرة صاح كهنة الخرافة: هَوِّدوا الجليل، وظلَّ الجليل عربيّاً، لأن الأرض لنا إلى الأبد وإلى الأبد وإلى الأبد لنا.

الجليل الجليل
تجيء الطيور وترحلْ
وتُنفى وتقتلْ
ولكن لي صخرة في الجليل
وقبرًا مُؤجَّلْ . .

ولا تسألني إن كنت أحنُّ إلى تفاصيلي، وإلى فُتات جسدي الموزعة على الشجر، فعليَّ أن أُخفي حنيني الشخصي لئلا أخرج عن السياق

الفوضوي، ولئلا أصرخ اني أتأهب للاندفاع إلى أول زنزانة على أرض الجليل، فليس في كل هذا الوطن العربي وطن لمواطن واحد.

اليوم يوم الأرض. وأنا حي إلى حد النشوة، وحُرٌّ إلى درجة التسامح. هل تذكر حوارنا القديم عن الحقد. كنت دائماً أقول لك ان الانتصار يصحِّح كل الخطايا غير خطيئة واحدة هي: ان عناد القلعة المحاصرة، إذا طال طويلاً، يؤجِّل نموَّ السري فينا، ويحاصر نشاط إنسانيتنا في حقل واحد هو اختبار انتمائها إلى وطن، كأن تكون الحرب هي الامتحان الوحيد. وكنتَ تخاف: أتعني السلام؟ وكنتُ أقول: إن إنسانيتنا تتوق إلى التفوق في تجارب أُخرى أيضاً.. وإن حقدي على الأعداء ناجم عن خشيتي من أن يقربوني من طريقة احتكامهم إلى الجدارة الوحيدة التي تسلِّط «الأنا» على الآخر، أي آخر، في علاقة عداء. إن وطني هو حقل لنشاط انسانيتي في مجال انسانيتها، أي أن لا يكون الوطن قيد الانسان بل مدى حريته. وبهذا يتفوق مفهوم الوطن الفلسطيني الجماعي الحر عن مفهوم الوطن الصهيوني الغيتو.

يسألني أحدهم: وماذا لو كان لك وطن؟

إنه سؤال لا يطرح على من ليس له وطن مُنجز إلا لاختبار حيوية الخيال. لو كان لي وطن، لكان عليَّ ـ مثلاً ـ أن أرحل بحرية وأن أُسافر بلا حياء وبلا ذنوب.

لو كان لي وطن، لأعلنت أني ضد الحكومة دون أن تتهمني الناس بالعدمية.

لو كان لي وطن، لقلت إن الوطن ليس هدفاً إلاَّ لخدمة الانسان.

لو كان لي وطن، لقلت أن الوطن لا يتأسس إلا بالديموقراطية والحرية، والاَّ صار سجناً.

لو كان لي وطن، لناديت بمقاطعة الكوكاكولا، وبفتح الحدائق للعشّاق..

إنَّ لي وطناً يقع وسط دائرة موتي وحياتي. أُصارع لاسترداده وحمايته من عجزي الذي لم يعد ذاتياً.

فليس في وسع أحد أن يموت كما يموت الفلسطيني.

ومن سطوة الآخرين. أليس هذا الصراع هو مجال النشاط الوحيد لحريتي وإنسانيتي حين أعي أن الوطن ليس مساحة من حجر وشجر بل هو ميدان انطلاق الارادة الانسانية في مجال فاعليتها وابداعها؟. هنا يرجأ التساؤل لتنصب كل الأسئلة والطاقات في عملية تحرير الحقل القادم للسباق.... تحرير الأرض من أجل تحرير الانسان، ولا يحرر الأرض إلا انسان حر، ولا قيمة للأرض إلا لخدمة الانسان الحر.

فيا أيها السجين الحر..

هل تدرك الآن ان الضوء يطلع من نافذة الزنزانة. وأن الظلام قد ينهمر من آفاق مفتوحة؟

فارم علينا حجراً آخر، لعلنا نمشي في النوم وفي اليقظة، لعلنا نوقظ العالم من النوم، لعلنا نرى الجليل.

إرم علينا حجراً آخر

حلم مسيَّج بالمدى المفتوح

من نيقوسيا، هذه المرة، يأتي صوتنا. من عنوان مؤقت في سياق الرحيل الطويل على أرض البشر. لا نبدأ من صفر، بل نواصل البدايات من خلاصة التراكم؛ تراكم التجارب، والتضحيات؛ والانجازات، التي تصوغ تقاليدها وليست كلماتنا أثقل من هذا الوطن الساحر والمسحور، الذي يحمله الفلسطيني، حتى آخر الشوط الانساني، روحاً وجسداً وفكرة. لذلك لا نلتفت إلى الوراء إلا لنتعلّم، مرة أخرى، كيفية إضفاء الديمومة على ما صحّ من وسائلنا في العمل، وفي القول، وفي تصويب الخطى، دون أن نحذر الدخول في جحيم النقد الذاتي، الذي يطمح إلى تحقيق تطابق أرقى بين طهارة الرسالة وبين أيدي حامليها. وقد يكون الصليب الذي وُلدنا عليه جميعاً، بين مساميره والخشبة، شيئاً من قدر الذين اختاروا أن يذهبوا في طريق النبوءة، والبشارة، في نشر رسالة الحرية، وتغيير المساحات، والعلاقات، والقيم، فرفعوا علامة اختلافهم عما يسود من حولهم، هوية حياتهم أو جوهرها. لهذا، لن يكون لنا مؤقت أخير، أو غربة أخيرة، أو منفى أخير، إلا داخل الوطن الذي نحلم بإبداعه على شاكلة الحلم المسيّج بالمدى المفتوح، القادر على استيعاب الاختلاف والآخر، والتفوق على مذاق المرارة، التي تزودنا بها مسيرة هذا الحلم الشرس، المفترس، المقدّس.

ونحن الذين حاورنا ساحة قدرنا، في أكثر من مكان، بتحويلها إلى ميدان امتحانات فذّة لا ننظر إلى الوراء إلا لنختبر اليقين

بفاعلية الطريقة، والرسالة، اللتين حاولنا بهما أن نصوغ حريتنا، ونُحَرّر ما يجاورنا من انحطاط، وأن نشدَّ خيط الضوء الطالع من دمنا حتى مداه الأوضح، ليهتز، أو ينهار، المفهوم الخامل الذي احتلَّ فكر القارَّة السائد حول المعالجة ـ النظرية ـ لموازين القوى، التي يتكىء على توازنها، الراهن أو المرتقب، كسالى الخيال والإرادة . . في محاولة بريئة أو متهمة، لقتل فكرة الحرية الحية في تلَهُّف هذا الجيل وحرمانه من حيوية الاختبار، ولاغراء السلاح الحديث ـ الذي كتب علينا أن يملكه سوانا، لاسباب لا تُشرح، ولا تُوَضَّح، لأن الأمر لا يعنينا ـ بالقدرة على نشر الفكرة الميتة في أعدائنا، وفينا، معاً. وهذا ما يعنينا حين نُطلُّ من منافينا الجديدة على بيروت، التي صارت بعيدة، على ما يبدو، عن لبنان وفلسطين وعن ذاتها.
نعم، لقد تمكنّا . . لقد تمكن أطفالنا من القتال مائة يوم متواصل، بما امتلكت أيديهم من سلاح تقليدي حولته طاقاتهم الروحية إلى سلاح حديث وفتّاك، وعلى مساحة من الأرض لا تزيد عن ثقب الابرة، قياساً إلى مساحة القارة العربية التي يغط عليها عملاق مادي عاجز. نعم، استطعنا واستطاع أطفالنا أن يتحدّوا آلة السلاح الحديث، أو الأحدث، التي يدثر بها الفكر الميت، بأن يوجعوا، حتى البكاء، جنرالات الظلام البشري ـ أو الحيواني ـ في أطول حصار عرفه تاريخنا المعاصر، حتى نقلوا وعي الحرية الفلسطينية إلى داخل البيت الاسرائيلي ـ بيتنا سابقاً ـ وإلى داخل الفكر الصهيوني الذي اضطر للانقسام على نفسه بين: وعي زائف ووعي شقي. فهل كنا نعلم أن أحداً لن يتحرك، ليس من أجل تحسين شروط الصمود، بل من أجل إقناع واشنطن بتوسل تل أبيب أن تفرج، لمدة ساعة واحدة في الأسبوع، عن مياه بيروت المعتقلة؟. وهل كنا نفتقر إلى حاسة انتباه أكثر يقظة لما استطاع النظام العربي الواحد. . نعم الواحد أن يحدثه من شرخ بين الناس، وبين توثّبهم إلى حريتهم التي صار دمنا أُحد معاييرها؟ نعم. كنا ندرك، ولكننا لم نقبل الاكتفاء بصمود الإِذاعة وحدها، لأن ذلك معناه أننا كنا نلعب كما كان سوانا يلعب. وهكذا وطّدنا الفكرة والاشارة وصواب لغة الصراع. أما الأمر الذي لم ندركه بدقة فهو أن لنا أبناء بهذه القوة، التي حولت معارك لبنان،

ومعارك بيروت، بخاصة، إلى اساطير بطولة، وأن المحارب الاسرائيلي المدرع هشٌ وفاسد إلى هذا الحد، لأنه يدافع عن شيء مات فيه، ولأن صراع الفكرة الحية مع الفكرة الميتة، الذي يدور بيننا وبين الاسرائيليين المسيّجين بحلفاء السرّ العربي، والمنطوي على حاسة المصلحة المشتركة على مستوى الأفكار الميتة، المرشحة للانبعاث من جثة الفلسطيني، بلغ حالة من نضج الوعي، المحلي والعالمي، جعلت السّلاح قاضياً من درجة ثانية، لا يقوى على احتلال المسرح. لقد امتدت الفكرة الفلسطينية وانتشرت، خلال هجومها الاسطوري في حصار بيروت، إلى مساحة كامل الكون الانساني، دافعةً بالفكرة الصهيونية الانعزالية ـ مع أخواتها العربيات الشقيات.. إلى أضيق حدود الغيتو. وهكذا كان صليبنا، الذي حولناه إلى أرض معجزة، مسرحاً في حجم الكرة الأرضية، شاهده سكّانُ القرن العشرين، في صالوناتهم ومقاهيهم وغرف نومهم. وصار الموقف من عدل الفلسطيني ـ الضحية المقاتلة ـ أحد المقاييس التي لا تُدحض لمدى ما يستحقه المواطن العالمي من مؤهلات حرية. لذلك، أيضاً، لا تتخذ النظرة إلى الوراء قليلاً شكل الدمعة إلاّ على ما تهدره الامكانية العربية من طاقات نصر، وما توفره من شروط عبودية واستعباد. وهكذا أيضاً لم تكن بيروت رهينتنا، بل كانت ساحة اختبارنا المشترك. ولماذا تكون رهينة؟ وهي مدينة تبحث معنا، ونبحث معها، عن حرية ممكنة، وديموقراطية محتملة، لا لأنها مدينة عربية، فذلك مصطلح يخلو تدريجاً من الجدوى والمعنى، بل لأنها كانت تتزوّد بالدلالة الدموية، وتتحرر بقدر ما تقاتل للحرية، ولأنها كانت مشروع حرية يتبلور في الصراع. كانت.. وكانت، ولم تكن هي، ولا نحن فيها، المسؤولين عن تحولها الآن إلى رهينة في أيدي الصهيونيين ـ اليهود، أو الصهيونيين ـ العرب الذي يفتقرون إلى أدوات الذبح التكنولوجي فيلجأون إلى البلطة لأنها توفر وقتاً للنشوة!.. كانت.. وكانت.. وقد يُقام الآن بوتيك جديد على قبر كل شهيد. وقد يضع الاسرائيليون بضائعهم إلى جانب جثتنا. وقد تنشط خيانة بعض المثقفين، الذين يشعرون بأن شارون جاء لانقاذهم من الضحالة، فشربوا له، ولدميته المحلية، كأس الانتصار

علينا، كما شربوا معنا من قبل. وراحوا يؤمنون الآن بحيوية دورهم، ويؤسسون مشروعهم الثقافي. كل شيء ممكن، كل شيء جائز في هذا العالم العربي الخرافي الذي أعاد بيروت إلى الحظيرة. ولكن بيروت قالت معناها. قالت محاولتها الملحمية. وما زالت تقول في شرطها الجديد. الاحتلال في كل مكان عربي. وكل وطن منفى. وكل إقامةٍ رحيلٌ في الغربة في شروط هذه العلاقات. وفي منفانا الجديد الذي هو فصل آخر من فصول البحث الفلسطيني الأوديسي عن صخرة يثبت فوقها، من جديد، قدم آشيل مواصلاً دورة الصراع سويةً مع نصفه المزروع في أرض فلسطين، التي هي موقعنا الراسخ، سنهزم مرة أخرى إحساس النفي بالادراك أن المنفى الحقيقي ليس وضعاً جغرافياً. المنفى هو انفصال الوعي. سنواصل السير في أضيق الممرات وأشد البحار هياجاً. ونحن لا نحمل ذاكرة الورق، فقد لملمنا بعض أوراقنا عن شوارع بيروت. بعضها احترق. بعضها ضاع. وبعضها مزقناه عن عمد مزقنا فيه الأوهام، ولم تكن قليلة. وصحيح، أننا، في المنافي الجديدة، لا نملك أرضاً نزرع فيها غرسنا أو شهداءنا، ولكننا نملك ما هو هدف العلاقة بين الأرض والانسان: الحرية، ورسالة الحرية. ونملك ما هو هدف العلاقة بين الانسان والأرض والتاريخ: إنتاج ثقافة الحرية، وشيئاً من شهادة الأنبياء على عصرهم، حتى تخلق كل قطرة دم لغتها الجديدة، ونشيدها الجديد، الذي يعيد انتاج حوافز الحرية، فتكون اللغة ما تكونه وما تقوله معاً. وتكون الحرية في الوطن وفي المنفى معاً. ولا تكون الحرية إلا ذاتها.. لا تكون إلا الحريّة.

في اللحظة المريضة

بين «تشاؤم الفكر» و «تفاؤل الإرادة»، تَتَوتَّرُ الكتابةُ في طريقة اقترابها من هذا الفصل المأساوي الجديد في سيرة المصير الفلسطيني. فالكتابة التي هي اعتراض، أو لَعِبٌ فعّال خارجَ السلطة، تجد نفسها أمام هذه اللحظة الحرجة راضية بما لا يُرضيها عادةً، تجد نفسها في حالة دفاع عن بناءٍ مُعَرَّض للتدمير من ناحية، وتجد نفسها في حاجة إلى تكبيل واجبها الراهن بسلسلة من الاعتبارات الدبلوماسية الغريبة عن طبيعتها من ناحية ثانية. ذلك، لأنها تستَنْفِرُ في صاحبها صفة المواطن المحمَّل بكلٍّ أشكال الواجب أمام بحر يهدّد السفينة، بجميع ركابها وتناقضاتهم، بالغرق. الانقاذ، أو محاولة الانقاذ ـ ولا شيء آخر ـ هو هدف الكتابة.

لا يجُرّنا هذا التحفظ إلى التساؤل عمّا جرى للكاتب الشاهد، فليس من مزايا هذا السؤال التحلّي بالصبر، لأن الانخراط هو خياره الوحيد، الانخراط في العُضْويّ لا في العَرَضيّ. ولكننا نواجه في الزمن الفلسطيني ما قد نسمّيه «اللحظة المريضة». . اللحظة التي تهدّد، إذا ما تورّمتْ، بتحويل ما يجري بنا وفينا إلى تحلّل يصعب تمييزُ خصائصه عن تحلُّل الوضع السياسيٍّ العربي، فيتحوّلُ الجزءُ المرشَحُ للإضاءة إلى جزء من الظلام الشامل، فتتحقق عروبتنا على الطريقة التي تَحَقَّقَتْ فيها سائر أشكال العروبة.

لحظة مريضة. . كان يمكن لها أن تكون طبيعيةً ومحاصرة بكثيرٍ من

عناصر الشفاء، لأن التجمعات الفلسطينية ـ وإن لم تكن منصهرة في مجتمع يخلق تقاليده وقيمه وأيديولوجيته، إذا شئتم ـ كانت مؤهّلة، بتوحدهـا حول الحلم والمعنى والمستوى المعنوي والسياسي الذي كان يمتلك مركزيةً في بيروت، لإدارة خلافاتهـا، ومصير تبعثرهـا بطريقة لا تؤدّي إلـى انفتاح الساحات أمام سؤال المصير. .

ما حدث في بيروت يختلف، جذرياً، عما يليه. الأسطورةُ للأدب. أما صانعُ الأسطورة التي أضافت إلى عصرنا معاني روحيةً مُفْتَقَدة، فإنه عاجز عن إقناع حارس الحدود العربية بأنه إنسان. ومن فرط الاغتراب بين المعجزة وصاحبها لا يستطيـع صاحب المعجزة الاستغناء عن الخبز. ماذا أردت أن أقول؟ أردت أن أقول إن بطولة الفلسطيني في بيروت لم تمنحه حَصَانَةَ البقاء أو الاستمرار خارجهـا. ولهـذا يتحرك الخلاف في الـرأي في مناخ لا يوفّرُ «للحظة المريضة» إمكانية الشفاء العـادية. ومـن هنا نقلـق لأن في وسع الفلسطيني أن يعلن الخلاف، ولكن ليس في وسعه أن يحلّه، لأنه أسيرُ شروطٍ لا يتحكّم بأدوات التأثير فيها؛ لأنه يُقَدِّمُ الخلاف للآخرين. . وليس مُهمًّا إن كان يدري وإن كان لا يدري.

لحظة مريضة في حياتنا يَمْتَحِنُ التعاملُ معها، بسلامةٍ، صدقَ أطرافها الثوريّ، ونكاد نقول وطنيَّتَهُمْ. نحـن في حاجة ماسّة إلـى مراجعـة شاملـة للضمير شرط ألاّ يكون الضمير هو الثمن. فمـا بعد بيروت لا يمكن أن يكون امتداداً ميكانيكياً لما قبـل بيروت. ولـكنّ المناداة بالبداية البيضاء، أي بالصِفْر، هي ضَرْبٌ من العَـدَمِيَّة، والتخلّـي عن تجربةٍ، وتراكمٍ، يُشكِّل التفريطُ به نوعاً من أنواع العراء الانتحاريّ، لأن كل الأسئلة الماثلة إلـى الشكّ أو التشكيك لا تستطيع الانتصار على السؤال: كيف. . ولماذا استطعنا أن نخوض أطول حرب صمود في تاريخ العرب الحديث؟

لحظة مريضة في حياتنا تألَّبَتْ على تأزيمهـا عوامـلُ داخلية، يمكن للتعامل معها أن يكون صحّياً ومنشِّطاً، ويضيف امتيازاً جديداً إلى ما يدّعيه النشاط الفلسطيني من ديموقراطية تصل حد الإباحية ـ لولا انكشاف هذا

العامل الداخلي إلى تداخل ٍ طبيعيّ مع عوامل خارجية، عربية ودولية، وجدَتْ فيه فرصةً مريحة لإدارة الخلاف المتراكم بين البند الفلسطيني في مَلَفٍّ الشرق الأوسط ـ وهذا المفهوم الرسمي للصراع ـ وبين بنودٍ عربية أخرى يحتويها هذا الملف . .

من مظاهر الخَلَل في حياتنا السياسية هو هذا التحوُّل التدريجيُّ ـ الذي ابتلعناه ـ لمفهوم الصراع العربي ـ الاسرائيلي، واستبداله ببنُودٍ وطنيةٍ في ملف «أزمة الشرق الأوسط» . إذْ لم تُقدِّم وقائع السياسة العربية أدِلّتها الكافية على إعادة الصراع التاريخي إلى طبيعته الصداميّة، ففي مثل هذا الحساب العظيم تنصرف الأسئلة الصغيرة حول التعارض، أو التناقض، بين التمثيل الفلسطيني وبين مَنْ هُمْ أكثرُ، أو أقلُّ، استحقاقاً له، إلى هوامشها الصغيرة في إيقاع مسيرة المعركة الكبرى، التي تتحوَّلُ فيها منظمة التحرير الفلسطينية إلى أحد فصائل حركة التحرر العربية «الزاحفة» إلى صياغة مستقبل العرب الجديد .

من هذا السكون الذي لا يَدُلُّ، حتى هذه اللحظة، على أنه يسبقُ «عاصفة الزحف»، ومن افتقاد الخطوة الفلسطينية، بعد بيروت، إلى صخْرة تُثْبِتُ عليها دَمَها، وحقَّها في النقض، وتواصل منها دعوتها، التي هي شرط حياتها، إلى تحريك القوى والبواعث الكامنة في القارة المترامية الأطراف، تتخذ مسألة العلاقة بين الثورة الفلسطينية وبين الوضع العربي العام طابع المأزق .

لا، ليس الاختلاف أو الخلاف المتّخذُ شكل الفضيحة الاعلامية حول هذه العلاقة هو الانعكاس لخلاف البيت، بقدر ما يشكّل خلاف البيت انعكاساً معاكساً . كما أن هذا الاختلاف، أو الخلاف، لا يقتصر على العلاقة بين منظمة التحرير الفلسطينية وبين سياسة هذه الحكومة العربية أو تلك . فنحن نخشى أن يكون الوعي العربي الرسمي قد تبلور عند نقطة القلق من التعارض بين المعاني التي يُشيعُها مجرد وجود الثورة الفلسطينية، وبين الميل الرسمي الشائع إلى الاعتقاد بعَبثيّة هذه المعاني، التي تُوَرِّطُ أوضاعاً غير مُعدَّة في صراع خاسر، أو تُفرّطُ بأمن الحكمة السياسية العربية التي تستبعد الحرب

من خيارات السعي الدؤوب إلى حل «أزمة الشرق الأوسط» بأقلِّ قدرٍ ممكن من الخسائر الاستهلاكية!

من هنا، تقْترحُ علينا قراءة الوضع العربي العام العاجز عن وقْف تدهوره، في اللحظة الراهنة الطويلة جداً، أن نتأمّل خلافاً أوسع مما يبدو على سطح الكلمات، وهو الخلاف بين فكرة الثورة الفلسطينية، بما تحركه في الداخل العربي المستتر، وبين مجمل وضع عربي لا يُحارب، ولا يَتَوَحّدُ، ولا يتحمل حرية الكلام والإضراب.

ولكن ما يثير الدهش والاحباط هو أن يَتَبَرأ هذا الوضع العام مما هو فيه حين تُوفر له فرصة الفرح السلبي الشامت على خلاف، يجب أن يكون ثانوياً، بين قوتين سياسيتين ومعنويتين كبيرتين هما الباقيتان في منطقة الصراع المباشر، وهما المرشحتان بموقعيهما وتحالفهما وأصدقائهما الدوليين المشتركين للقيام بالدور الرئيسي في عملية وقف الاندفاع الصهيوني، والانصياع العربي. فكيف حدث ذلك.. ولماذا؟

هنا المعضلة. هنا الشوكة. هنا السؤال البريء.

فإذا كان الخلاف دائراً على تصويب اتجاه المنطقة من مسار الإنهيار، فلماذا تكون الحركة الوطنية الفلسطينية هي أحد أهداف هذه العملية، وهي التي ترفع هذه المعاني بسياستها وممارستها ودم شهدائها الذي لا يجف؟. وكيف يؤمِّنُ الطرف العربي، لنفسه ولمقتضيات الصراع القومي، قُوّةَ الحرب وقُوّةَ السلام بتدمير هيبة منظمة التحرير الفلسطينية وفاعليتها، وبالتشكيك في وطنية رئيسها ياسر عرفات، وهو كما يقول الاجماع الفلسطيني والعربي والدولي، قد بلغ مرتبة الرمز، بوصفه أحد إبداعات الشقاء الفلسطيني وبطولته.

من المؤلم أن الخلاف بين أبناء «الخندق الواحد» يكون دائماً أشدّ الخلافات عنفاً. تلك مسألة أخلاقية تحتاج معالجة حلها إلى مستوى أخلاقي آخر. نحن لا نعرف كيف نختلف، ولا نعرف كيف نتفق. الآنَ فينا من موروث الطبع العشائري ما يجعل لغة تخاطبنا مع المبادىء والأفكار الكبرى

هشّة لا تملك مُقَوّمات الصمود أمام امتحانات المسؤولية، حين نتبارى على أوسمة البطولة أو الهزيمة؟ أم لافتقار الحياة السياسية العربية إلى إطار مرجعي، حين غادرتنا الضوابط القوميّة في هجرةٍ قد تطول؟

على الأسئلة أن تبقى بريئة لتوفير ما هو شرط حياتنا معاً: تأسيس العلاقات الفلسطينية ـ العربية على قاعدة تصون شروط الاتفاق وتصون حدود الخلاف، وتجعل للعلاقة بين ما هو اختصاصٌ وطنيّ وشأن قوميٌّ إطاراً محرراً من احتمالات الالتباس، وتعترف بشرعية القرار الوطني الفلسطيني المستقل المعرض الآن للسخرية والتشكيك.

كان الفكر السياسي الفلسطيني ـ وهو يراوح بين الغموض والوضوح ـ عُرضةً لاتهام المعارضة العربية، لأنه كان يأبى التدخل في الشؤون العربية الداخلية، حين كان هذا الفكر قادراً على الهجوم. إنه ما زال قادراً، ولكنه يشحذ الآن كلّ أسلحته ليتعرف على ذاته، وليحمي ساحته الداخلية من التدخل الخارجي في شؤون بيته الداخلية، ويُجْهِدُ نفسه للبرهنة على أن ما انتزعه الفلسطينيون من اعتراف عربي باستقلالية قرارهم الوطني ليس ضرباً من ضروب «الانعزالية»، وليس غطاء لوقف «الزحف القومي العربي الشامل» لتحرير القدس.

نحن، من جانبنا، لا نستطيع أن نفترق. نحن عاجزون عن الافتراق عن شروط حياتنا العربية. نحن قُوّةٌ من قوى حركات التحرير والتغيير العربية، ولا نطمح لأن نكون بديلاً لأحد. فليس فينا قوة الأنبياء، أو رغبتهم، في الإدلاء بشهادتهم للمُطْلَق الإنساني والسير في الجلجلة. ولا نريد أن نستشهد مجاناً، فليس دمنا رخيصاً إلى حد التبذير. ولا نرغب في الموت في المكان الذي تُحَدِّدُهُ لنا أقدارُ التراجيديا العبثية، ففي بعض البراري لا صدى للصوت. لا صدى للصوت في هذه البرية التي يُراد لنا أن نُساق إليها كما كانت تُساق القرابين الإغريقية إلى المذبح. لقد استردّتْ الضحيةُ وعيها، وهي تعرف أن الكاهن، وقائد الجيش، لا يريدان تحويل دمها إلى مطر على الصحراء العربية، في هذه اللحظة المريضة.

.. ومع ذلك، ومع ذلك أيضاً لا نريد ولا نستطيع أن نتخلى عن جبروت إرادتنا الحرة، وعن قوتنا المعنوية الاستثنائية في هذا الزمن ومع هذا الجيل، وعمّا أنجزناه من تكريس معانٍ لا تُهزم، ومن انقلاب في الوعي العالمي، وحتى في وعي الأعداء.

لذلك، نطالب أنفسنا بتحمُّل كل تبعات اللقاء مع بُعدنا العربي. ونطالب أنفسنا بمراجعة كل ما هو قابل للمراجعة في مسيرة مرحلة كاملة من تاريخ نشاطنا يبدو أنها وصلت إلى حلقة تحتاج إلى الانعطاف. ونطالب أنفسنا بالصبر على التفكير الصعب في وسائلنا وأخلاقنا، في علاقتنا بأنفسنا وبالأمة، في التوازن الدقيق بين عروبتنا وفلسطينيتنا، بين السلاح والفكر، بين الحلم والشعار. ونتساءل عما إذا كنا قادرين على الإستمرار في استعمال لغة قديمة للتعامل مع واقع جديد، وهل نستطيع التمييز بين الخيمة والدولة، بين المقاتل والشرطي، بين السفارة والعمل السري... باختصار، نحن نطالب أنفسنا بالتغيير وبالتغيُّر في خدمة خطّ التطوُّر لا التدهور. ونطالب أنفسنا بتكيُّفٍ لا يكسرنا ولا يعصرنا، فليس في وسعنا أن نواصل هذا النمط من التشابه والبراكين تتفجر. ونتساءل عن حسابات المواجهة مع ظرفنا العربي المائل إلى السكينة. ونتساءل أيضاً عن حسابات الانحناءة..

وهل نسينا العدو، أو هل شُغلنا عن العدو في معارك جانبية لا نريدها ولا نريدها؟ إنّ فينا لحظةً مريضة، صحيح، ولكننا نناشد أنفسنا الارتفاع بالمعاني على جناحين: جناح الإصلاح، وجناح الوحدة والاستقلال، لأن سقوط جناح الوحدة لا يُبقي لنا شيئاً لنصلحه. وهذا ما يفسر انصراف الانتباه الشعبي الفلسطيني عن مطالب الاصلاح، التي أُقِرّتْ شرعيتُها، إلى القلق على ما هو أخطر. شعب يضع يده على قلبه:

الجسد في خطر
القلب في خطر
الفكرة في خطر
والروح في خطر.

فمتى نعرف، متى ندرك أن: ما لا يَعْنيني لا يَعْني من لا أعنيه؟

ومـن التراشق بالـكلام، خارج الأطر وخارج التقاليد، إلـى التراشق بالدم . .

دَمُ أبطال بيروت، الخارجين من إحدى أساطير القرن العشرين الفذّة أو آخرها على الإطلاق، دمٌ مرميٌّ في البقاع . مَنْ يراه، من يصفّق له؟ من يزغرد لانتصار الضحية على الضحية . من يكتب لها الأناشيد . وأيُّ أمّ سترقص لسَفَرِ ابنها ـ شهيدها إلى فلسطين أو الجنة؟

لا أحد . . لا أحد . إذ لا صدى للصوت في هذه البرية .

من المفيد، قليلاً، أن ننظر في حالة العدو الـذي ينظر في حالتنا . إن محاكمة الذات التي يجريها، بعد بيروت، توصله إلـى إدراك الهـزيمة في الوعي وفي الهوية . فذلك المجتمـع الغـارق في الـديون والأسئلـة التي لا أجوبة لها لا يجد من إشارات الأمل حول مصيره غير ما يُحْدِثُهُ الفلسطينيون بالفلسطينيين . وهو بالتأكيد أمل شَقِي، لا يعنينا من مراقبته غير الأسف على براعتنا في تلَقُّف أزمات العـدو ونشرهـا فينا . إذ في مقدور المدافعين عن السياسة الاسرائيلية أن يبلغوا نقّادهم أنّ الفشل في سحق الهوية الفلسطينية والـروح الفلسطينية في بيروت قد يتحول إلـى نجاح علـى يد الفلسطينيين أنفسهـم في مكان آخر . ولـكن كاتباً اسرائيلياً بارزاً يقول : صحيح أن الاسرائيلي يحمل بطاقة، ولكنه لا يمتلك هوية، على عكس الفلسطيني الذي لا يحمل بطاقة ولكنه يمتلك الهوية . .

كيف نحافظ على هويتنا؟

أن نكون ـ مجرد أن نكون . ولـكن ما يجري فينا وبنا الآن يصفعنا بالسؤال : نكون، أو لا نكون . إن الخطر لا يُهدّد برامجنا السياسية، ولا يُهَدِّد شرعية خلاف الرأي بيننا، بل يُهدّد هذه الهوية المرشحة ـ بعد بيروت ـ إلى الارتفاع بمعـاني الأشياء إلـى سُمُوٍّ روحي لا يتحقق كثيراً في كلّ مراحـل التاريخ البشري، إلى مطلق إنساني يحول الاقتراب، أو الابتعاد البشري، من المعنى الفلسطيني، إلى المعايير الأساسية لجدارة الانتماء إلى الخيْر أو الشر .

في أوج هذا الارتقاء جَرَحَنا الفارقُ بين مَنْ نحن . . وما نعني . معنانا أكبرُ منا ، وكأنه ينفصل ويستقلُّ . وجُرحنا أحقُّ بالكلام من ضآلة لغتنا السياسية التي بقيتْ بعيدةً عما جرى ويجري . يبدو أننا لم نُؤَهِّل أنفسنا لنكون في حجم ظلال دلالتنا التاريخية . ويبدو أننا نفتقر أكثر مما كنا نتصور إلى السياج وإلى ثقافة المعاني . وضعْنا حفنة من لصوصنا في مرآة الآلاف من شهدائنا وأبطالنا ، فانقضّتْ علينا الكاميرات لتقتل صورة البطل فينا ، وتستبدلها بصورة اللص ففرحنا بها واستعدنا مشهد التزوير المجرم . . فيديو من صناعة قتل الروح وخلق الأوهام ، توّجناها بصورة شهيد يقتل شهيداً ويرفع على جُثّته إشارة النصر!

مَنْ ينتصر على مَنْ؟ كيف اخترنا عارنا بمثل هذا الشبق ! أهذا هو جوهر بطولة بيروت؟ أهذه هي رسالتنا إلى العالم وإلى الأهل ، لأن فينا من مركب النقص ، ونزعة تدمير الذات ، والخوف من النجاح ما يجعلنا مرضى إلى هذا الحد؟ إن هذا المشهد ، مهما تألب عليه المخرجون ، لا يقول غير شيء واحد: نحن أعداء دمنا . نحن أعداء روحنا . ولا شيء أشدّ فساداً من هذا الفساد .

الصورة رماد أسود . الأفق يقع على رؤوسنا من فرط ما هو ضيّق وبعيد . الحافز مُهَدَّدٌ بالشلل . كأننا أمام عملية انتحار كبرى تفتقر إلى الفروسية والشعر . دَمٌ مرميٌّ في البقاع . الطريق إلى فلسطين يمرُّ الآن في جثّة الفدائي وعلى أنقاض منجزات الشعب الفلسطيني . كأننا وحيدون وحيدون وحيدون حقاً بعدما نجح الوضع العربي الراكد في تحويل السلبية إلى خوف فامتثال . وصار علينا أن نتراجع لنراجع صواب الفكرة المطروحة في سوق السخرية . وصار علينا أن نكدح لنصدّق وعودنا التي صدّقناها ، وصدّقتها ملايين من البشر ، الذين كنا كلمة سرّهم ، ثم شاهدوا خنجرنا في وسط الكلمة .

وهذه المرة ، هذه المرة لن يتمكن الانفصال «المعتاد» بين السبب والنتيجة من دفع العوامل الخارجة عن إرادتنا إلى العمل ، فلن يهطل المطر ،

ولن تهبّ الريح نتيجة عوامل طبيعية لا شأن لنا بها. لن تمضي السفينة من تلقاء نفسها هذه المرة.

كيف نُنْقِذُ الجسد؟ كيف ننقذ الفكرة؟ وكيف ننقذ الروح؟ هذه الأسئلة لا تُحال هذه المرة على الفكر، بل على الإرادة التي تحشد طاقتها لتقهر السؤال الوجودي: نكون أو لا نكون. إذ ليس في وسع شعب أن يتقدم من هذا السؤال بطريقة محايدة وباردة. وليس في وسع شعب يحمل مثل هذه الهوية الفلسطينية الفذة أن يكون غير ما يكون عليه أصحاب الرسائل التاريخية الكبرى: رسائل الحرية.

لغة حوار أم لغة اغتيال؟

حسناً، ماذا بعد؟

ماذا بعد هذا اللغط الذي يشترط صياغة المصير الفلسطيني كله في سؤال واحد، هو: إتحاد الكتاب والصحفيين، دون أن يقترب من الموضوع، أيٌّ موضوع، يخصُّ ماهية الكتابة أو معنى الثقافة؟ .

العكس هو الذي يتقدم. السؤال يقمع السؤال. وبكاء الديمقراطية يذكرنا بالمفارقة الساخرة التي يخفي فيها القاتل وجهه في هوية الضحية: « إذا لم تسمح لي بأن أقتلك، أتهمك بالقتل »!!

هنا، في هذا العبث، وهو عبث فلسطيني الشكل هذه المرة، تتجلى كل عاهات الكتابة؛ كل إباحية الديمقراطية، إلى أن يصحو الفلسطيني وهو خارج من ركام الكلام على سؤاله: أين أنا في هذه اللغة؟ أو ما هي لغتي؟ أو، لماذا لا أنتحر بشكل أكثر فروسية؟

قد تشيخ الأشياء والأفكار، ولكن الحرية، أو البحث عنها، هي امتلاء الباحثين بطفولة الدَّهَش، وبالقدرة على إعادة الظواهر العابرة إلى ينبوع السؤال، لكي تكون لنَا بوصلة واحدة؛ بوصلة لتوازن الروح والموضوع، ما دام المكان الذي نسعى إليه لإسناد الأسئلة المكبوتة عن ضراوة التكوين وهشاشته، ما زال بعيداً عن متناول الجسد. فلماذا يكدُّ بعضُنا الكثيرُ،

ويجتهد لإضاعة الروح والموضوع بابتعاد المكان، أي لعقد الصفقة العدمية مع النفس بإضاعة السؤال ما دام وعاء السؤال قد ضاع؟ لماذا نقامر بموضوع الحرية، إذا كانت الحرية صعبة المنال؟ لماذا نفقد موضوع الأرض إذا كانت الأرض محتلة؟

وأكثر: لماذا يسعى بعضُنا الكثير لإبعاد المكان عن الذاكرة نفسها، وعن الحلم إيّاه؟ لماذا ينفصل هذا البعض الكثير عمّا يشكّله ويصوغ ملامح هويته ليزيد مساحةَ البياضِ، الذي يعزل الفكرة عن جسدها؟ لماذا نختلف على فلسطين بدلاً من الاختلاف على ما يبعدها؟ وهل يحقُّ لأيٍّ فلسطيني مهما توغل في شيخوخة المراهقة، أن يقتل فينا فكرة فلسطين بالطريقة التي يدافع فيها عن كارثة الحراسة العربية لحدود الأمن الإسرائيلي، وينفي فرسان فلسطين إلى قرطاج، وعدن، والسودان؟

للقلب أن يصاب من فرط الخوف على الروح وعلى الفكرة. لا، لم نخش قذائف التلموديين التي لم تجرح إلا قشرة الجسد في بيروت، بقدر ما نخشى هذه اللغة السهلة؛ اللغة المريضة التي يستخدمها بعضُ الفلسطينيين ضد أكثرية الفلسطينيين لتصيب الروح الوطنية لشعب يتكون في التجربة، ولتُحوِّلَ الحلمَ الجماعي إلى بضاعة وفضيحة، إذ كيف نقنع الأُمّةَ والعالم بفلسطينية العصر، إذ كان بعضُنا الكثيرُ يحاول أن يُقنع البداية الفلسطينية بأنها بداية الضّلالِ الموصل إلى الخيانة؟

ماذا تقول هذه اللغة الفلسطينية الدارجة الآن؟ إنها لا تقول أقلَّ من الدعوة إلى الانفضاض: لِيَذْهَبْ كلُّ واحد، إذاً، إلى بوليسه العربي، لقد كنا نلعب، كنا نمزح، كنا نرقص في عرس الدم، وما على الشهداء إلاّ أن يقدّموا اعتذارهم.

وهذه اللغة لا تقول غير ما يشبه القول إن فلسطين غير موجودة في هذا الوعي، وإن الشعب الفلسطيني، في هذا الوعي، أيضاً، ما زال غير مؤهل للحرية والاستقلال، لأنه لم ينتج نظام القيمِ، والتقاليد التي تَسِمُ أيَّ مجتمع، ولم ينتج لغته المختلفة عمّا لم يتحرّرْ.

نعم. أنا حزين لأني عاجز عن كبت إعلان الفضيحة، فضيحةِ اللغة الفلسطينية في تخاطبها بين الفلسطينيين الذين حوّلتهم هذه اللغة إلى مرتدين، ومستسلمين، وخونة. كأن يقول قائد فلسطيني بارز، مثلاً، « إن عرفات هو سادات فلسطين »، وكأن تقول مجلة « ثورية » فلسطينية « إن عملية خطف باص إسرائيلي هي رد على خط الاستسلام والانحراف »، لا رداً على الاحتلال الإسرائيلي، وكأن يقال مثل هذا الكثير.

كل فلسطيني في هذه اللغة الفلسطينية خائن. لا تحتاج اللغة التي تتهمه إلى سرد ما يدين لأنها هي ذاتها خائنة. هكذا تعلن هي عن نفسها، وعن دلالتها، التي لا ترشح دلالةٌ غيرها من سهولتها. فهذه اللغة، لو أحصينا نظام دلالاتها، لما عثرنا الآن، ومن قبل، على بريء واحد، فهل نبالغ كثيراً إذا عبّرنا عن الإحساس بأن من أولويات عملنا الوطني، الراهنة، هو التأمل في مأزق اللغة الفلسطينية لإدراك المأزق الذي تعبّر عنه في كل مستويات استخدامها، من البلاغ السياسي إلى الخطاب الثقافي، إلى شعر الهجاء؟ ولعل أخطر ما يجرحنا في هذا التأمل السريع هو أن هذه اللغة تتقدم بوصفها لغة الثوريين الجذريين، لغة اليسار، لغة الديمقراطيين، في مقابل خصمها الجاهز أبداً: « اليمين العفن »، « البورجوازية الصغيرة الحقيرة »، وغيرها من التعابير السهلة، السطحية، الملتقطة من فتات ثورية الخمسينات، حين كان الحقل السياسي العربي ينقسم إلى قمح وزؤان؛ إلى شر مطلق، وإلى خير مطلق.

ولأول مرة يتقدم الثقافيُّ فينا ليوبّخ السياسيَّ. إن مناسبة الحديث تحمل مثل هذا التضليل، لأنه حديث عن اتحاد الكتاب، أما باطن الأمر فيحتاج إلى تمهُّل.

فجأة، وبلا أية مقدمة ظاهرة، تراجع السياسيُّ ليتقدَّم الثقافيُّ، وهذا حسن؛ حسن لأن البند الثقافي، في حياتنا الوطنية، كان أبداً بنداً هامشياً، لأنه تابع وصدى، لأنه ابتهاج بقرار، أو احتجاج على قرار. كلبٌ ينبحُ، أو ببغاءُ تتلو، وفي أحسن الأحوال كان صورة لما لم يُصوَّرْ. حسن

إذا، أن ينقضَّ الثقافيُّ على فسحة الانهيار، على فرصته الفقيرة، فلعله يوقظ حاسة انتباهٍ للتاريخ؛ لعلّه يحرّك وعياً سائداً يغرق في اليوميّ ولا يجاورُ الأفق؛ لعلّه ينشّط سؤال العلاقة المزمن بين المثقف والثورة؛ لعلّه يقترح طريقة جديدة من خلال تجربة جديدة، باللغة الخصوصية، عن دور المثقف في العالم الثالث، ولعلّه يذكّرنا بسعي الكتابة إلى إعادة خلق العالم من خلال عالم ينهار؛ لعلّه يعوّض ما انهارَ من مستويات أخرى؛ ولعلّه، إن تواضع، يستولي على فراغ الهامش.

حسناً، وماذا بعد؟

تَأَمَّلْ جيداً لئلاً تذهبَ كثيراً في الوهم. إذْ سرعان ما تدرك أن هذا الثقافيَّ ليس إلاّ السياسيَّ الساخِرَ القديم، الذي يحطم آخر البيوت، والمعاني، ويُنَزِّلُ ما من شأنه أن يرفع في لحظة حياة شعب خسر زخم الامتداد على مستويات ما، وربح علم خسارته المشروع الثقافي، الذي يلمّ شتات الروح والموضوع، وفتات الأفق الساقط على انفجار اللحظات، ويفتح في ما ينهارُ حيزاً معنوياً لوجودٍ لم يوجدْ على رقعةٍ أخرى، إذْ نُريدُ، ونُريد، ونُريدُ، بعنادٍ لا يتعب، أن نفكّ الاشتراط الميكانيكي لعناصر الانهيار، فماذا يبقى للكاتب إذا أطفأ حاسّة الاستثناء؟ ماذا يبقى له لو تراجع عن شبق الحاجة إلى ريادةٍ تُجاوزُ العلاقة الميكانيكية بين نمو النَّص واستقرار المكان، أو ازدهار علاقة أخوية مع نظام قرَّر ألاّ يطردنا من الصراع فحسب، ومن المكان فحسب، بل قرر أيضاً إلغاءنا من الوجود الثقافي؟ ماذا يبقى لكاتب الحرية إذا اشترط علاقته بها بأن يقوم حارسه الليلي بتأمين ظروف أفضل للكتابة؟

من هنا تصلح مراقبة الطريقة التي تناقش فيها مسألة اتحاد الكتاب الفلسطينيين ـ من جانب المعترضين على التشكيل الجديد، وفي معزل عن السؤال الثقافي ـ تصلح لأن تكون دليلاً على تَبَطُّنِ السياسيِّ في الثقافيِّ من ناحية، وعلى فضيحة اللغة الثقافية والسياسية ليتحوّل الآنيُّ السياسيُّ إلى أفق رحب أمام ضحالة الكتابة الفلسطينية من جهة أخرى. تلك ملاحظة نشعر بها

منذ مدة، ونقولها، الآن، في حياء. لأن الحرص على الثقافة الفلسطينية، الذي يقتضيه أي تناول لموضوع كموضوع اتحاد الكتاب، هو الذي ينبغي أن يصوِّب لغة الحوار، أو المناقشة، وبما أن هذا الحرص المُفْتَقَد قد تمَّ تغييبُهُ تماماً، وتمَّتْ محاصرةُ السؤال الثقافي بكل أدوات البطش السياسي، بما فيه بطش لغة الاتهام، فقد صار من واجبنا أن نرى أن المسألة كلها قد وُضعت في سياق الانقلاب العام، الذي يسعى مدبِّروه الواعون، والأبرياء، على السواء، لأن يشمل كل مستويات العمل الوطني الفلسطيني، الأمر الذي يُجيزُ لنا أن نُدْرِجَ لغة هؤلاء الكتّاب، الذين لم يكتبوا حتى الآن، في ظاهرة الفساد والتآكل التي تصيب اللغة الفلسطينية في تعبيرها عن أزمة أعمق.

ماذا تقول لغة الاعتراض على اتحاد الكتاب؟

إنها تحصر «إدانتها» في القول إننا «مخدوعون بشرعية عرفات»!. أليست هذه «الإدانة» هي التلخيص الساطع للمسألة برمَّتها؟ إن السؤال المطروح، إذاً، على وعي المعترضين، والذي يحيلونه إلى وعي الوعي العام، ليس هو السؤال النقابي أو الثقافي، ولكنه سؤال بعض الحكام العرب المتعلّق بكل شرعية منظمة التحرير الفلسطينية، وليس اتحاد الكتاب إلاّ مثلاً صغيراً في سياق أكبر وأخطر. لا، لسنا قادرين على إدارة هذا الحوار من ضمن الإطار الواحد، فأصحاب أداة الحكم على الشرعية ينسَوْن أنهم قد تخلّوا عن شرعيتهم في اللحظة التي زلزلوا بها ماهيّتهم السياسية، التي كانت مستمدة ممَا لم يعد شرعياً في حكمهم، فهم، في معظمهم، كُتَّاب بالتعيين، ونقابيون بالتعيين، من وراء الكواليس، أو بالانتخاب المقرر سلفاً. والناخبون الذين انتخبوهم هم الناخبون الذين لم ينتخبوهم. المسرح هو ذاته، فلماذا تكون الأنا عديمة الذاكرة أحياناً؟. المسرح هو ذاته، لكن البوصلة هي التي تغيرت، وهكذا لم يَعُد اليسار يساراً تماماً، ولم يَعُد اليمين يميناً تماماً.

إن المسألة الثقافية الفلسطينية هي التي تستحق البحث حين نبحث مسألة اتحاد الكُتَّاب، وما دامت هذه المسألة لا تعني هؤلاء الإخوة، أو

الرفاق ، لأن مجرّد بحثها يطرد معظمهم من ساحة البحث ، لاغترابهم الحزين عن الثقافة ، فلنذهب معهم حتى النهاية في بحث ما يخصّهم لنقيس السؤال على المقاس المحدّد : ماذا لو تمت المصالحة بين عاصمتين متخاصمتين ، أو بين عاصمة وسفينة؟ ماذا لو تطور ، أو تدهور ، الوضع السياسي في بلد ما؟ ماذا يبقى من السؤال الثقافي الفلسطيني المركّب على هذه اللحظة العابرة؟ وماذا لو التقت الفصائلُ ـ أو الفسائلُ ـ الفلسطينية نتيجة انفراجٍ ما في التوتر القائم بين ميناءٍ وسفينةٍ؟ ماذا يبقى من السؤال الثقافي المطروح بمثل هذا الاستخفاف؟

أهكذا يصوغ المثقفون الفلسطينيون سؤالهم الثقافي؟ أهكذا ينظرون إلى دورهم في بلورة الموقع التاريخي لهوية شعب يموت يومياً ليحدِّدَ ملامحَ هويته الوطنية؟ أهكذا يحمل المثقفون الفلسطينيون مسؤوليتهم المُضْنية في المعركة الثقافية التي يخوضها شعب لم يتمكّن ، حتى الآن ، من البرهنة على وجوده الماديّ ، والثقافيِّ ، من فرط ما يتعرض له الوعي العربي والغربي لضغوط التزوير؟

ولْيَكُنْ أنّنا نختلفُ . إن هذا الخلاف هو ما يميزنا عن القطيع . والتعبير عن هذا الخلاف هو ما يميزنا عن القبائل المحيطة بنا . ولكن بأية لغة نعبِّر ؟ بأية لغة نصوغ ما يفرّق في إطار الإدراك العام بأننا شعب واحد ، ينتجُ القيم ، فهل هذه اللغة التي تحاكم السياسي والثقافي فينا ، كما تحاكم الأعداء ، وتحاكم الجوهريَّ بالشائعات الأخلاقية ، والتشهير الشخصي ؛ هل هذه اللغة هي لغة حوار أم لغة اغتيال ، وبخاصة عندما يستخدمها من يزعمون أنهم مسؤولون عن صياغة اللغة الروحية لشعب يبدع الحرية؟

أين ، أين السؤال الثقافي؟

أين سؤال التميُّز عن المؤسسة الثقافية العربية الرسمية؟ .

أين العلاقة الأخرى بين المعرفة والموقف؟ .

أين قدرة الحياة الثقافية الفلسطينية على خَلْق حيِّز فعّال لنشاط الدعوة

العربية الحية، والتمرّد على السائد، والمألوف، إذْ لا سيادة إلاّ لما هو ليس بسائد.

هـذه هي الشرعية التي تعنينا، وليست شرعية ما يشبه جامعـة الـدول العربية الثقافية.

أين سؤال الثقافة؟.

أين سؤال الحرية؟.

خطاب قصير
في أسبوع طويل

لم تبدأ آلام الفلسطيني في الأسبوع الماضي، ولا يبدو أنها ستنتهي مع نهايته. ولكن الدم الفلسطيني الذي يُغَطي شاشة العالم الآن يمنحه فُرصة الكلام قبل أن يُختم على الذاكرة الدولية بالشمع الأحمر. لقد اختلط المسرح الدموي بكُلِّ ما هو مُثير للدهشة وبما يشبه العجز عن الفهم . ولكن هوية القنابل التي تتقن تمزيق الجسد البشري لا تستطيع أن تخفي عن أحد هوية الضحية التي تعيد تركيب جسدها وروحها لصياغة هويتها المعرضة لمحاولات الإبادة منذ حوالى نصف قرن.

الفلسطيني يريد أن يحيا، يُصرُّ على أن يحيا. ولعلَّ ما قَدَّمهُ من ثمن لهذه الرغبة ولهذا الاصرار على الحياة يستحقُ ما هو أرخص من هذه التضحية: الحرية. ولكننا نخشى من قابلية الضمير العالمي على النسيان، فلقد اعتاد هذا الضمير على النوم الهادىء إلا حين يهاجمه دمُ الضحايا البعيدة في غرفة نومه، تماماً كما حدث في مجزرة صبرا وشاتيلا التي عكرت صفو القلب البشري، فسمعنا من تعابير الغضب والتعاطف ما أغرانا بالاعتقاد أن في وسع الضمير العالمي أن يصحو مرتين في قرن واحد (ا)، وأن ينتقل من حاسة التعاطف إلى فاعلية الاعتراف بحق الضحية الفلسطينية في أن تحيا، وأن تتحرر. ولكن مجزرة الصمت التي تمَّ ارتكابها في الذكرى الأولى لمجزرة صبرا وشاتيلا جعلتنا نرتعش من قدرة اللامبالاة على أن لا تُبالي.

ها هو الدم الفلسطيني يصرخ مرة أخرى في مكان آخر. الفلسطيني الباحث عن مكان لهويته يموت دائماً في مكان آخر. لعلّ طريقته الخاصة في الموت هي تعبيره الوحيد المُتاح، والكُلُّ يرى ويسمع. قد يُصَفِّق الإسرائيليون من الشماتة، ولتحقُّق نبوءة جنرالهم الذي قال قبل عشر سنوات: سنجعل العربي يقتل العربي بسلاح العربي على الأرض العربية.. وقد يخجل العرب من تاريخ استقلالهم الحديث الذي انتهى إلى ما انتهى إليه من اعتذار. وقد يستشهد آخر الرجال العرب الذين يصدِّقون أحلامهم ويؤمنون بالحرية، أعني قد يُقتل ياسر عرفات في مكان لا يُشبه القدس، لكن الحرية لن تكون غير ذاتها، لأنه كثيراً ما يحدث أن يتغلب الدم على السيف.

من البحث عن الوطن، إلى البحث عن منفى، إلى البحث عن قبر، تُسَجِّل الخطوة الفلسطينية إشارة حياة شبه وحيدة في منطقة تشبه قلب العالم، منطقة لم يُسمح لها بالتعبير عن نفسها إلا بما هو فولكلوري أو دليلٌ على سيطرة الآخر، منطقةٌ طردتْ من زجاجها شعوبٌ لا تشبه شيئاً في الصورة. ولقد وافق الغرب، وافق بطريقة لا تُدرك، على أن تصوغ إسرائيل صورتَهُ وصورة الشرق معاً في مرآة لا تعكس إلا البترول، والجمل، والوحدة العربية «المهدِّدة».

ألم تكن هذه الصورة المثلثة الأطراف أحد الأسلحة التي دُفع بها الشعب الفلسطيني إلى خارج تاريخ الوعي، وإلى «العائلة العربية» الكفيلة بتوفير «الجنة» للفلسطينيين؟ ألم يكن هذا السلاح هو الذي جعل الغرب صانعاً للقوة العسكرية الإسرائيلية التي تحولت إلى المندوب الغربي الوحيد في الشرق الأوسط، والتي نجحت، بتحولها إلى نموذج لدمى الحكم العربي، في أن تجعل العربي يقتل العربي، بسلاح عربي، على أرض عربية؟

لكن بعض النجاح أسوأ من الفشل. إذ أن دورة البحث الفلسطيني، المأساوية والبطولية معاً، من وطن إلى منفى إلى قبر، وهي تعبيرٌ عن مفارقة

اختلاط مصالح القمع الإسرائيلي بمصالح القمع العربي ، تثبت حاجة الفلسطينيين الملحة إلى وطنهم ، ولا تثبت استعداد المجتمع العربي لاستيعابهم كما تقول المقولة الصهيونية الكلاسيكية والراهنة .

إن رفض الحكم العربي توفير إمكانية التعبير السياسي للفلسطينيين ، وتصعيد هذا الرفض إلى حدّ المجزرة كما يحدث الآن ، هو نهاية الحل الإسرائيلي للقضية الفلسطينية ، القائم على أن الوطن العربي الكبير هو وطن الفلسطينيين . وهو أيضاً نهاية الخوف الإسرائيلي المصطنع القائم على أن العنصر الوحيد الذي يُوحِّد العرب هو محاربة إسرائيل ودعم منظمة التحرير الفلسطينية التي لا تحركها حوافز الحرية بل غرائز الانتقام!

إن ما يحدث الآن من مذبحة ضد الشعب الفلسطيني ، وضد وطنه المعنوي وهو منظمة التحرير ، وما نراه من تفرج الوضع العربي على عملية طرد التعبير السياسي الفلسطيني من لغة الصراع ، يدلُّ على خُلُوَ النظام العربي ، وهو شبه واحد ، من عناصر الالتقاء الآن على دعم القضية الفلسطينية وحلها خوفاً من تفاعلها مع مشروع ديمقراطي عربي . فهل سينجح الاختلاط الساخر لمصالح القمع الإسرائيلي ومصالح القمع العربي في اغتيال الاطار الفلسطيني ، والفكرة الفلسطينية ، والموضوع الفلسطيني؟

إن حجم الإصرار والبطولة الفلسطينية على الحياة تدفعنا إلى الاستهانة بقدرة القمع على ابادة روح شعب أعاد إلى معاني الحرية والكرامة الإنسانية بعض وهجها الضائع ، وامتزج مصيره ليس فقط في إدراك العالم أن لا حرية في الشرق إلا في حرية الفلسطينيين ، ولا سلام في الشرق إلا في إنجاز هذه الحرية ، بل امتزج مصيره بمصير الرغيف العربي ، وبمسألة الديمقراطية في العالم العربي .

إن اعتداء يد القمع العربية على الجرح الفلسطيني يرفع الشرعية عن الحكم العربي ، ويفتح للعلاقة بين الناس والحكم مدى كانت مظلة فلسطين التي يرفعها الحكام العرب تغطية . لقد سقطت ورقة التوت . كان اسم فلسطين في الميكروفون الرسمي وسيلة لتفريق المظاهرات الداعية إلى شرف

الخبز وحقُّ التعبير. كان اسم فلسطين هو شرعية الانقلاب العسكري.

وظيفة القمع هي أن يقمع، أن يعيد انتاج طبيعته، ولكن القمع في حاجة دائمة إلى ذريعة، في حاجة إلى خطاب، ولم يكن الفلسطيني المشار إليه، المشار إليه دائماً، في حاجة إلى الدهشة، لأنه منذ ألقت به حراب الاحتلال الإسرائيلي « ضيفا » على اخوته العرب ـ هكذا سموا اللاجيء في البداية، قدموا له كل الوعود التي لا تتحقق، وظلَّ مطارداً بما هو أكثر من التمييز، كان موسوماً بالعار. انه مُتَّهم ومطارد ومشار إليه، إنه لاجيء إنه « التائه الجديد ».

لقد شيد النظام العربي الجدار الفاصل بين الفلسطيني، كموضوع، وبين الفلسطيني كإنسان، لذلك ازدهرت الخطابة العربية الرسمية بأصوات لا معاني لها، وازدهرت الانقلابات العسكرية، وصاغ القمع شرعية من نسيج الموضوع المرفوع إلى مرتبة القداسة. كان لصوص الحكم في حاجة إلى إعلان إيمانهم لكي تؤمن بهم شعوب تعتبر امتحان فلسطين امتحاناً وحيداً لجدارتها بالحياة ولشرفها.

أما مضمون هذا الموضوع ـ الفلسطيني إنساناً ـ فقد أرجيء كما أرجئت مسألة الديمقراطية. طرد من حق التعبير والمواطنة والحد الأدنى من المساواة لأن ألواح الصفيح، العارية أمام قصف الطائرات الإسرائيلية وقصف برد الشتاء وحر الصيف، ضرورية لاحياء ذاكرة لم تنقطع. كان الجحيم العربي شرطاً لتذكير الفلسطيني بفردوسه المفقود. من هذا التمييز العربي، ومن ذاك الإرهاب الإسرائيلي، خرج التميُّز الفلسطيني، تميُّز الدفاع حتى الموت عن الحرية في منطقة تشبه قلب العالم. وكان العالم لا يعترف إلا في المجازر الكبرى، المجازر التي لا تخفى، بأن الضحية هي الضحية.

فهل آن الأوان لأن يُمَيِّز العالم بين النظام العربي وبين الإنسان العربي الذي هو ضحية من نوع آخر، ضحية حوَّلت الضحية الفلسطينية بالتعبير عنها حين كان في وسعها أن تصوغ ديمقراطيتها المحاصرة بصحراء القمع؟ حين

كانت متطلبات ترسيخ الحكم العربي توفِّر هامشاً لنشاط تعبيري فلسطيني حرّ. لذلك كانت منظمة التحرير جزيرة الحرية والديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط. كانت كلمة سر العرب المضطهدين.

لعلَّ ذلك ما يُفَسِّر التقاء النظام العربي الآن على محاولة إغراق هذه الجزيرة غير القابلة للإغراق، لأنها لا تقوم في مكان محدد. إنها جسد وفكرة. إنها عدوى البسالة. ولكن، ربما يكون في جنون المحاولة ما يفيد انفتاح أسئلة الشارع العربي على كل المستويات. فجنون البطش لا يجابه إلا بجنون التحرر. قد يجد الرغيف العربي البسيط مُكَبِّر صوته، وقد يجد حقٌ الحلم بصوت عال منبره المكسور. وقد تتمرد الفتاة العربية على مساءلتها عن بكارتها، وقد يرفض المؤمن مخاطبة الله عن طريق الشرطي. قد يحدثَ كل شيء.. قد يحدث كل شيء...

لقد ارتفع المعنى الفلسطيني إلى المطلق البشري. كانت بيروت اسم مدينة. ولكن التقاء الضحيتين الفلسطينية واللبنانية على طريق حريتها حولها إلى اسم معنى. الآن تحوم على طرابلس الأسماء. ليست هذه المدينة موقعاً عسكرياً ليكون سقوطه ـ إذا سقط ـ سقوطاً للمعاني. وليست الحرية زيًّا لنستبدله بآخر. إنها روحنا.

ونحن عشاق حرية إلى درجة الذوبان، إلى درجة الانتحار. نحن انتحاريون إلى حد التحرر. لا نملك إلا دمنا، ومن حقنا أن نحوِّله إلى رصاص أو ورد. من حَقِّنا أن نقطع سواعدنا ونحارب بها من يحارب حقنا في البقاء. من حقنا أن نفعل بأعضاء جسدنا ما نشاء.. أن نزّجها في عيون القتلة والشهود. اعترفوا لنا بحق آخر لكي نمارس لعبة أخرى. اعترفوا لنا بحائط نُعلق عليه صور شهدائنا كي لا نعلقها على سهراتكم. اعترفوا لنا بقمر واحد كي نعرف أن السلام ليس لفظة ميتة في القاموس. اعترفوا لنا بساحة مدرسة على أرضنا لكي نبرهن لكم على أن أولادنا يولدون بساقين وذراعين وعينين، ثم يفقدون أعضاءهم في بحثهم عن اثداء أمهاتهم. ثم ماذا؟ دمنا هو لغتنا. اسمحوا لنا أن نتكلَّم لغة أخرى. اسمحوا لنا أن نرقص قليلاً. اسمحوا لنا أن

نتبهج بالذهب الذي يرميه الخريف على الشوارع . اسمحوا لنا أن نقيم في وطن . اسمحوا لنا أن ننام في منفى . اسمحوا لنا أن نستقر في قبر. ثم ماذا، ماذا تريدون منا . نحن لا نريد منكم شيئاً، فماذا تريدون منا . . ماذا تريدون . ليس السبت نهاية الأسبوع . لأن سفر تكويننا لم يكتمل . فمتى نخرج من الأحد، متى ندخل في الأحد! . . متى . . متى؟

القتل الآخر،
والأبجدية الجديدة

في ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا

صبرا وشاتيلا اسمان للدم، يتخذان هيأة السؤال ـ الجواب ـ الاتهام الشامل. قاطعان حادان كالبلطة والسكين، وسائر أدوات القتل البدائية التي تقيم حفلة الموت للجسد الفلسطيني، أينما يتمُّ الانفراد به. والهدف أبعد مما وراء الجسد. الهدف سؤال: هل يحق للفلسطيني أن يحلم في ما بعد؟ هل يحقُّ للبطولة أن تتذكّر هيكلها العظمي؟.

لأشكال القتل أن تتعدَّد لمحو الجسم والذاكرة: من السكين الذي يتيح للقاتل وقتاً للنشوة، ولإطلاق الحيوان الجنسي المكبوت فيه، واختبار فارق القوة الذي يوفِّره النظر الطويل في عيون الأطفال المذبوحين، والنساء المغتصبات، إلى أحدث أدوات القتل الالكترونية التي تمنح القاتل حصاداً أكبر في وقت أقل، دون أن تتعرّض استراحته التالية لأي ضغط من ضغوط الذكرى.

وللمحكمة الاسرائيلية أن تثرثر ـ تثرثر عدالتها المشروطة بالحرص على جمال الصورة ـ صورة القاتل الذي لا يقتل إلاَّ بالدم الساخن، فليس في وسع مئات الجثث المعروضة للشمس وللذباب، أو المدفونة تحت رمال شاطىء بيروت الجنوبي، أن تكذب عدالة القتلَة. لقد كفَّت الضحايا عن الصراخ في الوداع الكبير الذي جرى للمدافعين عنها: المقاتلين الذين أبحروا في مياه البحر الأبيض المتوسط، في رحلة تحوِّل الأوديسا إلى تراث سياحي، تاركين وراءهم أكواخاً من الصفيح والاسمنت الهشّ، يقيم فيها

أطفالهم ونساؤهم في حماية القوة المتعددة الجنسيات، التي استقبلها المدنيون الخائفون بشيء من الرجاء، بعدما أخفى العرب عنهم مصادر رجاء آخر.

ساحة للقتل.

زمن للصمت.

لذلك كفّت الضحايا عن الصراخ والخوف في بقعة شاسعة وضيقة في آن، ساطعة الضوء، أنارتها الطائرات الاسرائيلية، ليتعرّف القتلة جيداً على ضحاياهم. جاء القتلة من الموقع، أيّ من الصفوف الاسرائيلية. وليس مهماً أن نتعرّف على ملامحهم، أو على الشارات العسكرية الحقيقية، أو المزيفة، التي يضعونها على أكتافهم. ليس مهماً إن كانوا يتكلمون اللغة العبرية، أو اللبنانية الدارجة، فالهيمنة على مداخل المخيمات هيمنة اسرائيلية مطلقة، وإضاءة ليالي القتل هي إضاءة اسرائيلية، والاحتلال احتلال اسرائيلي، ولو استعان كما يستعين أيُّ محتلّ بكلاب إرشادٍ محلّية، والقتلة هم نتاج العملية الاسرائيلية، فهل على العدالة، أيضاً، أن تكون عدالة اسرائيلية، لتجدَ التراجيديا بُعْدَها الساخر؟.

للضمير الغربي، أو العالمي، أن يرتاح؛ له أن يستبدل صور ضحايا الآن، المطلة من شاشة التلفزيون، بصور أخرى قديمة تحقّق التوازن المطلوب لهدو الضمير، بعدما أصدرت العدالة الاسرائيلية حُكْمَها الذي لا يَرُدُّ بتبرئة الاسرائيلي من القتل، فالسحر الزائف الذي تحتويه لفظة الديمقراطية المخصصة لضبط العلاقات، وحقول الاختصاص بين يهود اسرائيل وحدهم، كان تعويض الغرب عن تقصيره في مذبحة صبرا وشاتيلا.

لا. لا يمكن لضحية الأمس أن تتحول إلى قاتل الآن. هكذا يُسدَلُ الستار على المذبحة ليعاود الضمير الغربي محاكمة ذاته، وتبرئتها بفكرة واحدة قديمة: «لم نشاهد. لم نعرف». فهل يستطيع أحد أن يقول عن صبرا وشاتيلا: «لم أشاهد. لم أعرف؟».

من سوء طالع هذا الضمير أن زمن القتل الاسرائيلي المستمر منذ دير ياسين إلى صبرا وشاتيلا، يجري على إيقاع ومرآى تطور مذهل في وسائل

الاتصال العالمية التي ابتكرها الغرب. المجازر على الشاشة، وعلى الهواء، ولم تكن الضحايا تتساقط جنوب بيروت وحدها، بل كانت تقتحم، عبر شاشة التلفزيون، كل صالون وكل غرفة نوم في العالم. هل بكى عليهم أحد؟ بالتأكيد بكى عليهم الكثيرون، ولكن هل ساعدهم أحد على النجاة، الآن، من هذه المذبحة، أو بعد قليل، من المذبحة المستمرة؟ هل تطور العطف الإنساني، والادراك البطيء بأن الفلسطيني هو الضحية، وهو البطل الطالع من الضحية، وليس القاتل، إلى تفكير جاد في مصير شعب، وإلى الاعتراف السياسي بحقوقه؟ كلا، لأن المحكمة الاسرائيلية هي المرجع الوحيد لهذا الضمير، الذي ليس في وسعه أن يصحو مرتين.

من المعروف أن المقاتلين الفلسطينيين قد غادروا بيروت إلى البحر، وبدأ الجيش اللبناني عمليته الكبرى في تنظيف شوارع المدينة، ورفع الحواجز والمتاريس. ومن المعروف أن القوة المتعددة الجنسيات، الأميركية والفرنسية والايطالية، قد دخلت بيروت، وكُلِّفَتْ بحماية المدنيين الفلسطينيين في مخيماتهم، ولكن لم يشرح لنا أحد، بوضوح، لماذا انسحبت القوة المتعددة الجنسيات قبل المدة المقررة لإقامتها؟ هل تم ذلك لتسهيل اجتياح الجيش الاسرائيلي مدينةً ودّعت فرسانها؟ هل كان كل شيء مُعَدّاً لمسرح الدم الذي بلغ أوْجَه في المذابح؟ وهل يستطيع سؤالنا الاحتفاظ ببراءته من المسؤولية المتعددة الجنسيات عن مذابح صبرا وشاتيلا؟ ومن يستطيع القول إنه لم يشاهد، ولم يعرف؟.

لقد ضلَّلت صحوة الضمير القصيرة جداً نفسها في البحث عن القاتل: من شقّ بطن الحامل بالحربة؟ من قطع الرأس بالبلطة؟ من علّق الضحية من قدميها كذبيحة العيد؟ من ساق البلدوزر على بيدر الجثث؟ من، ومن، ومن.. وغيرها من أسئلة تحوم بحياء شديد حول صورة اسرائيل المثيرة للدهشة. كان من الصعب على القضاة أن يفصلوا زمن الاحتلال الأخير عن مسرح المذبحة المسيج بهذا الزمن، ليجدوا القاتل في الصورة التي توزعها اسرائيل عن جوهرها، في عرب حدّدوها مثالاً بعدما اختاروها حليفة. لا فرق، لا فرق. فالعملية ذاتها، بتفاصيل القتل ذاتها، وبالبطولة ذاتها، جرت قبل قليل في دير ياسين وغيرها، قبل أن ينتهي الاسرائيليون من صياغة عربهم

الجدد، عندما كان شعارهم: «العربي الجيد هو العربي الميت»، وقبل أن يتطور عرب السلطة، من الاستقلال والوحدة العربية، إلى صياغة شعارهم السرّي، الممارس بعلنيّة: «الفلسطيني الجيد هو الفلسطيني الميت».

وهكذا لا يندهش إلاّ الفلسطيني من دهشة العالم أمام ترجرج صورة إسرائيل، بعيداً عن الدهشة التي يثيرها تمازج الصورة في صور عربية. لقد وقع الجميع، بلا استثناء، في الرغبة الباطنية في تبرئة القاتل ومشتقاته، بمجرّد انتظار عدالته، وبمجرد التمييز الإنساني بين القتل الالكتروني والقتل البدائي، أيْ بمجرّد طرح التساؤل.

ولكن لصبرا وشاتيلا أكثر من قاتل.

فنحن الذين نعرف أجسادنا التي نحملها من مذبحة إلى مذبحة. نعرف، أيضاً، أن في وسع العربي أن يقتل الفلسطيني، سواء أكان خادماً للنموذج الاسرائيلي أم كان ممتثلاً لتراجع الحسّ العربي إلى كهفه الحلزوني، أم كان ـ في أحسن الأحوال ـ لا مبالياً تجاه مصيرنا.

لقد تمّ هجاء الصمت بصمت أيضاً. وأحياناً تمّ تفسيرهُ، أو تبريره، بالخوف والعجز، وصرامة الشرط الاستهلاكي، ومع ذلك فإن شلل الشارع العربي لم يحُلْ دون انفجار طاقات الحماسة عندما لامسها تعادلٌ عربي أوروبي في ملعب كرة القدم، عندما كانت ملاعب الدم في بيروت تغصّ بآلاف القتلى، وكان شهداء صبرا وشاتيلا يكدَّسون في الشاحنات، والأزقة، وتحت الرمال. أليست هذه السخرية، وهذه الصورة الساديّة في اللامبالاة، شكلاً من أشكال القتل الآخر؟.

ومن يستطيع أن يمرَّ مرور الساخر العابر على مشهد السيدات الأنيقات، اللائي يتدافعن ليرمين الورد العاشق على الدبابات الاسرائيلية شرق بيروت المرحِّبَ برُسُل الحرية الاسرائيلية، في طريقهم إلى مقاهي البحر، دون أن يربط المشهد بما سيقوم به أفراد العائلة المبتهجة ذاتها، غداً، في صبرا وشاتيلا؟.

أليست التربية التي تنتج عاهرات الاحتلال شكلاً من أشكال القتل الآخر؟

لقد تلامس المحاذي الاسرائيلي بالداخل الذي فتح المنصّة لأمراضه الاقليمية، والطائفية، بطريقة مفضوحة جعلت إسرائيل في غنى، أحياناً، عن بعض المهام، ووفّرت لها منبر الدفاع عن النفس، القادر على تضليل الرأي العام.

لذلك يتفرّع القتلة، ويتعدّد اسم القاتل في أسماء شتّى، دون أن نذكر كل المجازر الكبيرة والصغيرة التي أكلت أجساداً فلسطينية ولبنانية كبيرة. نعم. نعي أن هنالك أكثر من اسم للقاتل، ونحن نحاول أن نصدّ هجوم بعض العرب الذين يطاردون الناجين من المذبحة، والمذابح، ليجرّدوهم من حقّ النطق باسم دمهم، وليحشروا الشعب الفلسطيني كلّه في حقيبة دبلوماسية موجهة إلى عنوان غامض ليس هو وطن الفلسطينيين.

إن مصادرة الجسد الفلسطيني، وفكرة الحرية الفلسطينية، والاستقلال المعنوي الفلسطيني، والتمثيل الفلسطيني، في كل أصقاع المنافي، هي شكل من أشكال القتل الآخر، الذي يتعرض له شعب بأكمله هو شعب صبرا وشاتيلا. لا أرض لنا الآن، ولا سلطة يدور حولهما الصراع مع النظام العربي شبه الواحد، الذي يمارس بجبروت مدهشة ضيْقه بتقدّم المعاني الفلسطينية في الوعي العربي، والوعي العالمي، وحتى في وعي العدو. المعركة، برمّتها، تدور حول تمثيل الفلسطيني لذاته، ولدمه. هل يمثل الفلسطيني ذاته؟ وهل يحقّ له أن يمثل ذاته؟ هذا هو الشكّ الوقح الذي تطرحه علينا وحشية الهجوم الذي يشنّه النظام العربي شبه الواحد، لتخلو الساحة من الوجود الفلسطيني، ومن الموضوع الفلسطيني أيضاً.

هكذا يعي الفلسطيني، الوحيد حتى حاسّة الأنبياء، أن تمسُّكه بأداته السياسية، على علاّتها، هو تمسُّك بالذات؛ بالقدرة على انتحار عظيم؛ بقطعة جسد تجدّد للأرض بدايةً؛ بصواب يحمي من الجنون العام؛ بصرخةٍ تُخلْخل منتصف الليل؛ باسمٍ يحمل للأنقاض هويةً.

الفلسطيني وحيد في صراعه مع العدو، برغم أنهم أبعدوه عن ساحة مصارعته، في وقت تتم فيه المصالحة الرسمية، والعملية، بين النظام العربي

شبه الواحد وبين العدو الاسرائيلي ، الذي يتخذ الآن ، في وعي هذا النظام ، صفة عدوٍّ الفلسطينيين وحدهم . إنّ ما نراه الآن من هجوم عرب السلطة على الوجود الفلسطيني ، المادي والسياسي ، لا يحتاج إلى مجهر ، وإن كان يحتاج إلى البرهان على أنه ليس تتمة للمهمة الاسرائيلية التاريخية ، وتتابعٌ تلقائي يوحي بأن المصلحة الصهيونية ، ومصلحة الأمن العربي الاستهلاكي ، قد التقتا ، وتشابكتا ، هنا ، هنا ، الآن ، الآن ، في نقطة الوعي الشقيّ المشترك بضرورة الخلاص من الوجود الفلسطيني . هنا ، الآن ، في ما يشبه اندثار قيم الأمس ، وفي ما يشبه السقوط المدوّي .

وهكذا ، في هذه اللحظة ، يتحوّل إحساس الفلسطيني بأنه وحيد ، وحيد في ذاته ، وحيد في أداته ، وحيد في دمه ، وحيد في حلمه ، إلى وعي تمايز عن حال السقوط الضخم ؛ إلى ما يشبه الهوية الدفاعية .

وهكذا ، أيضاً ، لا يخاف الفلسطيني من هذه الوحدة الروحية بقدر ما يطالب نفسه ، وقادته التاريخيين ، بتحويلها إلى وحدة وطنية ، تنطلق من أبجدية جديدة مختلفة . فقد لاحظنا أن في وسع الفلسطيني ، الخاضع روحياً ، أن يقتل الفلسطينيّ فيه وفي أخيه ، وبتطوير وعي الخطر التاريخي المشترك إلى تحالف الضحايا ، كل الضحايا العربية والفلسطينية ، في وجه معركة لا تتقدّم منا إلاّ بصفتها معركة إلغاءٍ من الوجود .

جنون أن تكون فلسطينياً

لا شيء يتغيَّر، لا شيء يتغيَّر غير طعم الهواء.

في ظلام الغابة الوحشية، يجري تعديل طفيف على نص الدم المفتوح،

المفتوح إلى ما لا نهاية . . .

غير أن المخرج يتكلَّم، هذه المرة، لغة عربية شديدة الحماسة،

والمكان هو المكان ذاته . . . المكان الذي يذكِّر بدم لم يجف، بجثة لم تنشف؛ بصرخات لم تنقطع ولم تصل.

والقتلة هم القتلة. الضحايا السابقة لقاتل لم تأخذ منه الضحية غير التقليد الطائش، تماماً كما قلَّد هو أيضاً قاتله السابق.

القتلة يغيرون شارتهم ويتقدمون من الضحية ذاتها، الضحية التي لم تجد ما تغيره في المكان، ولا في عملية انتظار الموت.

صبرا وشاتيلا رقم ١

صبرا وشاتيلا رقم ٢

هل نجح هذا الكابوس إلى هذا الحد ليجلد انتاجه؟

يمدُّ قاتل سابق لسانه ساخراً وشامتاً: ألم أقل لكم إن هذا الشعب زائد؟!

هذا الشعب الزائد هو الشعب الفلسطيني. ماذا تفعل السكّين بالدودة الزائدة؟

تستأصلها...

العملية ذاتها، عملية استئصال الشعب الفلسطيني: من أرضه، ومن أمله، ومن جسده، مستمرة منذ حوالي أربعين عاماً. ولكن طائر الفينيق، أو الطائر الأخضر ـ كما تسميه الأغنية الشعبية الفلسطينية ـ لا يتوقف عن الولادة من رماده.

إن مسرح العبث الدموي في الشرق الأوسط يترك الخيال الأسود عاجزاً عن ابتكار صوره السوداء!.. وعلى جثة الفلسطيني أن تغيب؛ أن تغيب تماماً عن المسرح، أولاً، ليتسنى للطوائف أن تلعب ادوارها بطريقة أخرى أكثر تلقائية؛ أن تبتكر نصها الجديد، أن تواصل تقاليدها التاريخية في أخذ ثأر آخر، وأن تتقاسم الغنائم الغامضة...

ولكن،

هل عرف شعب آخر غير الشعب الفلسطيني هذا العدد من الهجرات؟ هذا الكم من المنافي؟ وهذه الأعداد من المذابح؟ دون أن يكافأ بوطن.. أعني وطنه؟ ودون أن يحظى باعتراف، أو... أو بوعدٍ ما من بلفور جديد؟

إن بعض الشعوب، أو الطوائف التي حولت نفسها إلى شعوب، مدين بحقّه في الحضور، أو بحقه في تغييب شعب آخر، لما لحق به من مجازر. فبماذا يكافأ هذا الشعب المطبوخ على نار صبرا وشاتيلا؟ وإلى أين يراد له أن يذهب لتنتظره مذبحة جديدة؟

وهل يُصدِّق الضمير الغربي، هل آن له أن يُصدِّق، أن القارة العربية، أو السجن العربي الشاسع الواسع، لا تشكل بديلاً عن وطن الفلسطينيين، ولا توفر لهم على الأقل إجازة واحدة من وظيفة الذبح؟

وهل آن له أن يجد علاقة ما بين اعلان القاتل الأول: إن فلسطين بلد بلا شعب، حتى إعلان القاتل قبل الأخير: إن الفلسطينيين شعب زائد!.

لن يفهم غير الذين يريدون أن يفهموا: كيف يقتل العـربيُّ العـربيَّ؛ وللتمييز: كيف يقتل العربيُّ الفلسطينيَّ؟

لأن النظام العربي الواحد، على ما يبدو، يقاوم تطوّر الوعي والوجدان الفلسطينيين بهوية الفلسطيني الوطنية، إذ أن مثل هذا التطوّر يجعل الشعب الفلسطيني طرفاً أساسياً في الحرب وفي السلام على السواء، لا لأنه قد يدفع الفلسطينيين إلى ما وراء «المشروع العربي الكبير» كما يقول الإعلام القومي العربي الأجوف، بل لأنه يفضح غيابه. فأين هو المشروع العـربي الـكبير خارج الخطابة الإذاعية؟ أين هو على أرض الواقع؟ أين الزحف العربي، ذو اللون الواحد أو المتعدّد الألوان، نحو الوحدة والديموقراطية وفلسطين؟ أين هو لكي يحُلَّ الفلسطينيون منظمتهـم ويذوبوا فيه ذوبان الجنود الصغـار في المسيرة الكبرى؟

نعم، يقتل العربيُّ العربي،
ويقتل العربي الفلسطيني،
لأن قطعان الذئاب الطائفية هي التي تستولي على الأمة..

ولأن القضية الفلسطينية هي فضيحة الأمة؛ هي الاثم والـكابوس المرهق الذي يتحول إلى عدو. وهي التي تُنَغِّص عليهـم أمنهـم الـطائفي، وأمنهم العائلي، وأمنهم الشخصي، وأمنهم الاستهلاكي.

وهكذا تنتج شركات القتل العربي صبرا وشاتيلا رقم ٢، ليكون للحرب السياسية على منظمة التحرير الفلسطينية مصداقيّة التصفية الجسدية؛ ليصدّق الفلسطينيون أن اختلاف النظام العربي عنهم ومعهم هو اختلاف عرقي أيضاً، وإنهم شعب زائد مطالب بالتلاشي، التلاشي المعنوي والتلاشي الجسدي.

سيصحو السيد المريض بيغن من اكتئابه العميق ليشاهد صبرا وشاتيلا ٢، علـى شاشة التلفزيون. سيقول مرة أخرى: أن غير اليهـود يقتلـون غير اليهود، فما ذنب اليهود؟

وسيكون في وسع وزير دفاعه، بطل غزو لبنان، أن يواجه معـارضيه

متسائلاً بقوة: هل فشلنا، حقاً، في لبنان؟ ألم أجعل الطوائف حراساً متطوعين لسلامة الجليل؟ ألم نصنع أدوات قتل مجانية، وعربية، ضد الفلسطينيين؟

وسيتساءل الإسرائيليون، وهم مرتاحون هذه المرة، عن نسبة الفوارق بين فوائد الاحتلال المباشر وفوائد الانسحاب غير المباشر من لبنان.

ولكن أحداً لن يسأل عن معاقبة أبطال مجزرة صبرا وشاتيلا رقم ٢. ولن يطالب أحد بتشكيل لجنة تحقيق، ولا بإقالة وزير الدفاع العربي الذي ترتكب المذبحة في ظلٍ هيمنته، لأن لجان التحقيق هي صناعة صهيونية لتضليل الرأي العام! ولأن الديموقراطية الغربية البرجوازية تُفسد عملية بناء الاشتراكية العربية!.

بدلاً من ذلك:

ستواصل صحف دمشق الشريفة اتهام ياسر عرفات بارتكاب المجازر ضد شعبه ليغطي «خيانته» الساعية إلى دولة ـ مسخ للفلسطينيين يزيد بها تفكيك العالم الموحد في دولة عربية واحدة!...

وستواصل تلك الصحف قولها: أن تطهير المخيمات الفلسطينية من أنصار عرفات هو شرط حفظ الأمن والسلام في لبنان، وأن تسليم السلاح الفلسطيني للواء السادس اللبناني، المشارك في المجزرة، هو شرط أساسي لوقف المجزرة!.

نعم، يقتل العربي العربي،

وتاريخ الحرب اللبنانية مليء بالمذابح المعبرة عن تمسك الطوائف بأصالتها! اللعب بالجثث والرؤوس المقطوعة المعلقة على الشجر وخلف نوافذ سيارة الجميِّل، ورقصات الشمبانيا والغيتارات بين الجماجم.. هي أحدث أنواع الرياضة والتسلية في بلد ترشحه الطوائف لأن يتحول إلى سويسرا العرب.

ولكن لم تتوحَّد الوحوش على جسد كما توحدت على الجسد

الفلسطيني. لم يمر عام واحد في تاريخ الشعب الفلسطيني الحديث دون مذبحة.

خذوا هذه العناوين البارزة، عناوين فقط في رواية ضخمة لم تكتمل فصولها، لتروا بعض أختام الموت على الجسد ـ المعجزة: دير ياسين، كفر قاسم، قبية، عمان، تل الزعتر، بيروت، صبرا وشاتيلا رقم ١، طرابلس، صبرا وشاتيلا رقم ٢. وكل أدوات القتل منذ تطور الحيوان إلى إنسان حتى عودة الحيوان إليه: البلطة، السكين، البندقية، المدفعية، الصواريخ، والأسلحة الالكترونية.

غير أن الطائر الأخضر يعاود الانبعاث في كل مرة، ويصوغ أسطورته الجديدة. فبأيٍّ سلاح يقاتل هؤلاء الفتيان المحاصرون دائماً، المحاصرون في شارع أو بناية أو خندق؛ المحاصرون في هُويَّة؟.

سلاحهم الوحيد هو الجنون، والجنون، والجنون: جنون الحياة، وجنون اليأس، وجنون العُزلة.

وهم الذين يعرفون وجوه قتلتهم الجدد. يعرفونها جيداً وقد يكون من المفارقة الجارحة: فهم الذين علّموهم جدوى القتال للحرية؛ هم الذين نقلوهم بالأمثولة والزمالة من دموع الشكوى والحرمان إلى القتال دفاعاً عن حق وعن وطن؛ هم الذين زرعوا جنوب لبنان تقاليد صمود وبطولة؛ هم الذين اسّسوا مناخاً جديداً لمقاومة الاحتلال؛ هم الذين استشهدوا معهم في مقاومة الغزو، وهم... هم الذين ـ أكاد أقول ـ ساهموا في تكوين قتلتهم!.

وها هم القتلة، أبناء سلاح أمس القريب المشترك، يتقدمون مقلِّدين القتلة السابقين، قتلتهم الإسرائيليين. لماذا تقلِّد الضحية قاتلها كثيراً، لماذا؟ يصطادون المدنيين من أطراف المخيمات. يحفرون القبور الجماعية. يمتصون دم الجرحى. يقتلون الجرحى في المستشفيات. يسرقون الجثث ويخفونها. يطاردون الفلسطيني الحيَّ والميت.

فمن أين جاءت هذه الكراهية؟
ومن أين جاءت قوة الوحش الغامضة؟
ومن حوَّل محرومي لبنان الفقراء إلى قتلة فلسطين . . . مَنْ؟

لا يكفي أن نعرف أن الآفة الإسرائيلية قد تركت آثارها وراءها. علينا أن نعرف أيضاً أن غابة الطائفية السياسية قد أطلقت ذئابها الكامنة، وأَكَلَتْ حدود التمييز بين الأخوة، وبين الأعداء والحلفاء. كل شيء هنا جائز؛ كل قيمة مستباحة. والفلسطيني هو العدو الجاهز دائماً. هو العدو السهل الآن. هو الضحية التي تُرضي إبادتُها كُلَّ العواصم، وتُسَهِّل إبادتُها شروط التفاوض ودخول النادي السياسي الليلي. ولكن، أي تفاوض؟ وأي ناد؟ لا أحد يعرف. لأنه ليس من الضروري أن يكون السؤال والجواب واضحين لكي تقتل في لبنان الآن أو تُقْتَل. إذ لا مرجع الآن للعرب: لا مرجع وطني، أو قومي، أو أخلاقي، أو إنساني. لا رسالة لهم الآن ولا خطاب. والفوضى تفيض . . .

ويعرف الفلسطيني، المحاصر في أمتار مربعة، وظهره إلى حائط هش، يعرف أن ليس من حقه بعد الآن أن يطمئن إلى الوعي العربي المشترك تجاه الصراع العربي ـ الإسرائيلي، بعدما تحوَّل هذا الوعي إلى وعي سابق . . . عندما احتلت المسرح السياسي العربي العصبيات الطائفية والأنانيات الاقليمية، وتحولت الأوطان إلى شركات خاصة محدودة الضمان لا يشغلها إلا الخوف من الغضب الإسرائيلي خلف الحدود، ومن الغضب الشعبي داخل الحدود، فتواجه الخوف الأول بتقديم كل أشكال حسن النية وبمحاربة العدو الفلسطيني المشترك، وتواجه الخوف الثاني بمزيد من القمع والخطابة.

لهذا يسكت الشارع العربي. يسكت تماماً من وطأة الإرهاب ومن الصدمة، ولا يُعَبِّر عن طاقته المكبوتة إلا في حالات فوزه أو خسارته في ألعاب كرة القدم!

هل نقول إن صبرا وشاتيلا ٢ أقسى علينا من صبرا وشاتيلا ١؟

لن يستطيع الفلسطيني المقارنة، لأنه مزدحم بالموت؛ مشغول بالدفاع الشيطاني عن بقايا جسده، وعن كامل حلمه، لأنه مشغول بالتميُّز عن المناخ السائد،

ظهره إلى الحائط،

وعيناه إلى الوطن،

ولا يستطيع الصراخ أكثر، ولا التساؤل عن حكمة صمت العرب وعن لا مبالاة الغرب،

لا يستطيع أن يفعل غير شيء واحد: أن يكون فلسطينياً أكثر؛ فلسطينياً حتى الوطن والحرية، فلسطينياً حتى الموت؛ لأنه لا يملك خياراً آخر.

هل هذا هو الجنون؟

فليكن!

حنين مكبوت إلى بيروت

تعليق على شريط تسجيلي عن إعادة بناء مخيم شاتيلا

تعود إلى بيروت، تعود في الكتابة. إذ ليس في وُسْع أحد أن يعود إلى ما كان. وإذا عاد فليس في وسعه أن يجده، أو يجد نفسه، كما كان. لعل من حق الشعر أن يعيد استخدام السحر كأداة استحضار أو سيطرة على الغائب والمجهول. ولكن لا أحد يعود إلى ما كان. فلماذا تشدنا هذه المدينة كأنها بداية تاريخنا، كأنها طفولة فورية؟ ونكبح ما فينا من حنين ليس من حقنا أن نبوح به، لا لشيء إلا لأنه حنين مُهَدَّد!

لم يعد حُبُّ الأندلس يثير مخاوف الاسبان، بعدما اعتادوا تحولها التدريجي إلى ملكية جمالية للجميع، وبعدما صارت وطن المفقود، وطن الأغاني والغياب، وشوق رحيل الإنسان إلى لذة لا تتحقق. ولكن، ما إن يحل الشاعر العربي على حوار اسباني حتى يتم استجوابه: ماذا تفعل في قرطبة؟ ولماذا تحفر اغانيك هذه الذاكرة؟ الأن اللغة، حتى لو كانت لغة شعر، ما زالت بنت شعبها الخاصة ولم تتمكن، بعد، من أن تتجرَّد؟ الأنك انتهيت هناك إلى خروج؟

مرت ثلاث سنوات على خروج آخر لا يتشابه ولا يتطابق. وكنت تظن أن اللغة العربية هي بنت شعبها الواحد لولا الخناجر التي انهالت على ظهر النشيد: هل يحق للفلسطيني أن يحب بيروت وأن يغنيها؟ لقد وجدت الأغنية صامتة فحاولت أن تحركها. وما كادت السفن تمخر البحر حتى احتفل مراقب

لبناني بضمور الشعر الفلسطيني في معرض الكتاب العربي. فهلّل: رحل الشاعر ورحل جمهوره. فلننشد إذن. لقد زال احتلال الأغنية!

ليس من حق المهاجر من الهجرة أن يجيب. فلتأخذ الفرصة مداها الأزرق، وليطلع العشب من كل حجر. تبهجك حاسة الشماتة، لأنك تحب الشعر إلى درجة التسامح: اعطوني شعراً، ولا تكتفوا بقتل الأب والأخ، بل اقتلوا الزميل أيضاً... اقتلوني شرط أن تولدوا...

لكن بيروت تواصل خرابها العام. وأنت تخفي حزنك على كل نافذة تسقط من النشيد. إذ لا يحق لمثلك أن يحزن على ما ليس له، خاصة إذا كان هذا الحزن متهماً بادعاء ملكية. ألست فلسطينياً؟ دع الموجة المريضة تمتد لتنحسر. دع احتفال الغياب يمتد حتى حضور الطوائف، بكامل عُدَّتها، لتدل على أن الوطنية تتشكل من مصادر أخرى غير كراهية الآخر الذي هو أنت. أنت الآخر، والجيوش زُوَّار أو خدم لمائدة الوفاق!

ولا يحق لك أن تتذكر بيروت، ولا أن تقول إن هذه المدينة الملتبسة، المدينة ـ المدن، المدينة ـ الجزيرة، المدينة ـ الغابة عاصية على الكتابة. لقد صاغت كُلٌّ من مر فيها، ولم يقدر أحد على صياغتها. عشت فيها عشر سنين، أكثر مما عشت في حيفا. ولا يأذن أحد لك ـ لو استأذنته ـ بأن تواصل الاصغاء إلى إيقاع ما فيها من أسرار، ولا أن تُنَمِّي حاسة العلاقة بتفاصيل شوارع سلخت منك مهابة الموت وفجاءته. فإن سيرتك الشخصية فيها مكرسة من أجل صياغة شعار على جدار ـ سقط الجدار وظل الشعار ـ ومن أجل صناعة مرآتها العلنية ـ السياسية أو السياحية. وهي لم تنظر إليك ولم ترك إلا نمطاً أو نموذجاً يعلو ويهبط تحت تأثير تقلباتها وحدود عقائدها المرنة. فما كان مأثرة أمس يتحول الآن إلى عار. وما هو عار اليوم يتحول غداً إلى وطن. وفي بورصة الأفكار والايديولوجيات يشتري المثقفون ـ وخاصة هواة أقنعة التقدم ـ هويتهم اليومية باعتذار عما سبق ـ من ماو إلى عرفات إلى بول بوط إلى الخميني إلى ما لا تعرف ـ ولكنك دائماً تقول إن بيروت ليست هناك. ولكل منا بيروته. وان بيروت قد تختبىء في شارع أو وعي، وقد

تحمل معانيها وترحل.

الصعوبة هي أنـك ما زلـت تقارن البحر الـذي ادخلك بالبحر الـذي أخرجك، وليست الموجة واحدة. الهذا يتغير البحر. ألهذا لا تعرف تماماً إن كنت قد دخلت أو خرجت فأين تجلس؟ أين تطلق اسماً على مكان؟ أين مكان المكان؟

لـم تكتمـل خطبة الـوداع، لأن الـوداع النهـائي في حاجة إلـى لقاء أصلب، ولا لقاء. والأرض هشة. ولم يخرج المكان من المخيلة ليجلس. ولا بُدَّ لعلاقة الجسد بالفكرة من مكان للزفاف أو مكان للجنازة. ألهذا السبب تشدد القبضة على حنجرة الصرخة، وتقاوم حنيناً يُوَرِّط حلفاءك السابقين في شقاء التمييز بين خطوتك وخطى الغزاة؟

كم كنت تظن أن سيدات القرنفـل المنهمر علـى دبابات الغـزاة ـ في الأشرفية ـ ستستنفر القوة الداخلية للوطن الواضح، بدلاً من التصفيق للرئيس الذي تمخضت عنه دبابات الغزاة، وبدلاً من تطهير ظاهرة رجمك بالصواريخ والخطب الوطنية والاعتذار الجاهز عما سبق من التحام الشعبين الشهير!

كل الحروب تبصق عاشقات للجنرالات. كل الحروب تولد عاهرات. ولكن لم يحدث أبداً أن يتحول أنين العاهـرات إلـى خطاب ثوري. كيف جفت دموع الـوداع واسْتُبْدِلَـت الـذاكرة بجهـاز نسيان؟ كيف انقضَّ رفاق السلاح علـى شعبـك هناك، كيف انتجوا الفصل الثاني من صبرا وشاتيلا، كأنهم يكنسون المدينة من معانيها وبطولة فرسانها في الحصار وفي ملاحقة الاحتلال، ويتدربون علـى لذة الحقد في جسدك. يتدربون علـى القتـل فيك...

ولا يحق لك أن تصرخ، لأن القائد اليساري، الـذي سلحته أمس وحميته، لا يتورع عن القول أن الفلسطيني شديد الصراخ، يحوِّل خلافاً على حادثة سير إلى كارثة، ويبالغ في وصف ما ينتابه من أذى، ويسمي كل موت مجزرة. يسمِّي كل موت مجزرة! أليس ما جرى في صبرا وشاتيلا مجزرة؟

لكن القائد اليساري، يقول لك: ليس دم الفلسطيني أعزَّ علينا من دم اللبناني! لم يقل أحد ذلك. ولكن من يميل إلى هذه المقارنة يدخل الشارع في مناخ العنصرية. ألم تبدأ العنصرية من مفاضلة الدم؟

وبيروت تواصل سفك دمها. دم يملأ الأرض والشاشة. دم يسيل سدى. اختلطت فيها قوى القتل وانفصلت لتتكاثر بوحشية. الوحش يملأ الحاضر والأفق. ولا نرى خطاباً أو رسالة. هل بقي أحد ليموت؟ من أين يأتون بكُلِّ هؤلاء القتلى؟ كان الموت مطراً عادياً وذباباً عادياً، ثم تحوَّل إلى لغز. مَنْ يقتل من ولمن؟ مدينة تقف في أقصى الجنون والدهشة اصاغت لها موسوعة جحيم يختلف عن موسوعات التراجيديات الإنسانية. مدينة تستنهض أول تاريخ الغابة. مدينة جميلة تستعصي على النسيان. مدينة يؤمنها من رآها يوماً واحداً. وفي استراحات الموت القصيرة تنبثق منها الحياة طليقة طازجة، تطبع الكتب وتنشر المآدب وتغني. كأن الحياة هي الاستثناء. إنها معجزة.

وفي كل واحد منا بيروت ما. في كُلِّ واحد منا جزيرةُ كلامٍ مباح. كنا هناك، وما زلنا هناك. فالبذرة لا تهاجر. وليس سهلاً اقتلاع بيروت من البناء العضوي لمن ساهم في صياغة بيروت المضادة، كما يصعب اقتلاع المعاني والأجساد المتداخلة في اسمنت المدينة. البحر هو البحر. لذلك تعود إلى بيروت، تعود في الكتابة، وتعود في اجتياز الوعي مرحلة الطيش والشقاء، وسقوط الحروب التي حاولت أن « تُحرِّر » لبنان من فكرة فلسطين، وحاولت أن تبعد حدود فلسطين عن تركيب لبنان. لذلك، تعبِّر عن حنين إلى مدينة لم تكن مدينة ولا بديلاً، بل كانت عتبة الدخول إلى البيت الأول.

وهذا الشريط الذي يفجرك ويعيدك إلى بيروت في الكتابة، يعيد إليك طائر الفينيق الناهض من الرماد والدمار. شاتيلا ليست للبكاء ولا للماضي. شاتيلا ليست اسماً للدم وحده.

من يستطيع ترجمة الصورة إلى كلام؟ إنني أبكي من قوة شعبي. لقد توقف الموت قليلاً. استراح من ضحاياه. انتهى الفصل الثاني من المجزره.

أنقاض تدل على نهاية. انقاض تشير إلى بداية. انقاض وصفيرُ ريح. فتاة تكنس شظايا القنابل عن متر يصلح للنوم. فتاة نضرة لا ترى الكاميرا، لذلك تخط مكنستها دلالتها الصامتة. فتاة تنظِّف بقايا غرفة من الموت وتذهب إلى يومهـا بأناقة. أنقاض وصفيرُ ريح. وجه طفـل ينبثق كالقمر الشيطاني من الخراب. يلعب بما تبقى من أشياء أبيه. يرى الكاميرا فيصوب إليها شارة النصر، ثم يأخذ مطرقة ويدق مسماراً على خشبة لتنتقل الحياة إلى ورشتها.

لم يحدث هنا شيء. ذهب الموت. جاءت الحياة. طلع القمر غاب القمر. طار الحمام حطَّ الحمام. مرَّت المجزرة. انهار كل شيء، فعلينا أن نبني بيتاً لنسكن. ليس للنهـايات هنا من إدراك. الحياة تواصل مهنتهـا، والبقاء للبدايات. جاءت شاحنات الحديد والرمل والأسمنت. بدأت اعادة البناء. لا وقت. للذكرى ولا وقت للحقد. العمل... العمل... استجابة للطبيعي. باقون هنا للمرة التي لا تحصى. لا يروون ما حدث. يتكلمون عن الصواريـخ والقنابـل ببساطة من يتكلـم عن عاصفة مَرَّت. سقط الثمر عن الشجر. طلع القمر غاب القمر. ينجون من المجازر مرة أخرى. يخرجون من المجازر ويدخلون في حياتهـم اليومية. يدافعون، يقاتلون، يبنون، وينجبون الأطفال. هنا. هنا. هنا. المخيم هو المكان. لا مكان خارج المكان. وفي كل مرة ينهار وجودهم على رؤوسهـم. وفي كل مرة يعيدون تركيب المكان، يعيدون تركيب المشهد. منهمكون في إعادة تركيب حياتهم المهـددة بالتفكيك من جديد. قليل من الاسمنت والحديد والرمـل يكفي. يكفي لإعادة بناء المكان. الآن، الآن خرجوا من المجزرة الثانية، خرجوا بجمال ورشاقة وشبه أناقة. ولا أثر للموت وللخوف عليهـم. لقد اغتسلـوا وجاءوا إلى البناء.

أية قوة فيهم؟ أي جنون؟ وأي سر؟ كيف يبني العاقل بيتاً على فوهـة بركان؟ ماذا يفعلون إذن. اين يذهبون؟ لا يحصون شهداءهم، إلاّ ليزيدوا النسل. هل هم ناس أم شياطين؟ أطفال يتفجرون من بين الشظايا والخرائب، يجرون قضبان الحديد ليبنوا بيوتاً قد تتحول إلى قبور بعد قليل.

لا شيء يهمهم سوى مواصلة الامساك بنبض الحياة وبإيقاع العناد. وشيوخ يعرفون تفاصيل بلادهم ويشمون روائح النباتات من بعيد. عائدون إليها هناك. ويبنون هنا. يبنون لأنه لا بُدَّ للعائد من نقطة يعود منها. فهم لا يستطيعون الإقامة في الهواء.

هنا نقطتهم. هنا صخرتهم. هنا أرض عنادهم. العناد العناد. و « الشعب الزائد » يتزايد، ويشهر حقيقته بكُلِّ ما فيها من مفارقات وقوة حياة تلقائية. هنا البئر. هنا الملجأ. يعيدون تركيب المكان في شروط أقوى. باقون وعائدون، إذ كيف يعود العائد إن سقط؟ مفرداتهم قليلة لا يداخلها الموت إلاَّ في جُمَل معترضة. مشغولون في إعادة بناء المخيم ـ رحم الثورة. لا بكاء ولا صراخ ولا ذكرى . يستعدون لما تأتي به الحياة والمؤامرات والحروب القادمة. لا يُسَمَّون بطولتهم. لا يعرفون أنهم أبطال، فالبطولة للكتب. هم البطولة ولا يعرفون. بطولتهم تنمو فيهم وحولهم كما ينمو البصل الأخضر والبقدونس والورد قرب ماسورة ماء مكسورة. ومن فرط ولعهم بالتتابع يعيدون بناء المشهد كأنهم يلعبون بالأقدار. هم الذين يسخرون إلى حد العبث. من أين جاءتهم هذه القوة؟ الأنه لا خيار لهم؟ الأنه الحصار؟ انهم يعيدون بناء « بيروتهم » الخاصة ويملأون سماءها بطيور الفينيق. إنهم يعينوننا على الحياة وعلى الأمل الصعب.

قليل من الاسمنت والحديد يكفي لإعادة تركيب المكان.

كفى، أوقفوا هذا الشريط أوقفوه لأعلم أنني قد خرجت من بيروت. أوقفوه لأعود إلى بيروت، لأعود في الكتابة!

في انتظار البرابرة

«والآن، ماذا سيحل بنا من دون برابرة؟
لقد كانوا نوعاً من الحل»
قسطنطين كافافي

١

متى يَضْربون؟ متى يضربون سيضربون؟ لقد اعتدنا هذا السؤال اللجوج منذ اعتدنا انتظار البرابرة، الذين لم يصلوا في القصيدة المذكورة إلى الاسكندرية، لينصرف الشاعر إلى حلٍّ عقدة ليله الشخصية، ولكنهم استوطنوا واقعنا ووعينا منذ مدة طويلة، لتنصرف المؤسسة العربية إلى حلٍّ عقدتها معنا. لقد وضع البرابرة الجدد الحدود في جيوبهم فصاروا يطلعون من حياتنا بشكلٍ أليف مألوف. ولكن متى يضربون هذه المرة، وأين يضربون هذه المرة؟ سؤال مشدود كأوتار الرعب من المحيط إلى الخليج. ليلة قَدْر معكوسة، وطويلة، يتطلَّعُ حُرَّاس الليل إلى قمرها الساحر في انتظار البرابرة الطالعين من مكان آخر، ربما من سلاحهم الشخصي، وربما من شاشة التلفزيون. دعوات، وصلوات، وقرابينُ أرخصُها لحمنا لتوجيه الضربة إلى مدينةٍ أُخرى، أكثر عروبة أو أقل عروبة. وتعاويذ مضادة للقضاء والقدر ترشد الضربة الآتية إلى الجسد الفلسطيني وحده. متى يضربون؟ متى يضربون ليخلص القاعدون على عروش الانتظار من هذا القلق، ومن هذا الجسد في غارة واحدة، ولينصرفوا إلى إدارة شؤون الرثاء، والتفاوض المجاني بلا عقبات. إنها لحظة متوترة تمد على مدار تاريخنا الحديث، تتكرَّر دائماً لتحوِّل التراجيديَّ إلى كوميديٍّ أسود. وهذه اللحظة، هذه المرة، تزخر بأقسى المفارقات في لعبة أقنعة طويلة وثقيلة. ولكن البداية واحدة: فكُلَّما فجَّر شاب نفسه ليعبِّر عن عزلة خانقة، أو لينسف طريق سياسة لا تعجبه، أو

ليقدِّم مساهمته الخاصة في الاساءة إلى قضية، أو ليترجم بجسده حملة ثورية سمعها من إذاعة أو من معسكر تدريب متخصص في اغتيال الفكرة الوطنية المستقلة. . كُلَّما حدث ذلك، وأصابت أشلاء طائشة يهودياً مّا في أي مكان، مَدَّدت الأمة جسمها العملاق في انتظار البرابرة. واتخذت هيئة المضروب قبل الضرب، دون أن تُعدَّ نفسها لبارقة دفاع عن النفس التي ألعفت الضب. وحين يطول الانتظار الشديد الشبه بعذاب فأر أمام صبر القط الذي يطيل وقت الإعداد للشهوة، استعجلنا الضربة: هيَّا اضربونا واضربونا لننصرف إلى أعمال لا عمل فيها. . لننصرف إلى الخمول. ولكن متى يضربون وأين؟. ليست قدرةُ الآخر على بلوغنا أينما كنا هي مصدر الإهانة الوحيد. فنحن جُرْمٌ ضخم لا تحتاج إصابته إلى مهارة حابل أو نابل. لقد أنجزنا في هذا الإدمان اعترافاً شديد الأبَّهة؛ اعترافاً يعادل اكتشاف العناصر؛ اعترافاً لا يعترف به أحد؛ اعترافاً شخصياً بأننا نحن الضحية. نحن الضحية فلنرقص جذلاً. كأن العدو ليس هو العدو. لتطلع النرجسة، إذاً، من مرآة هذا الجرح. نحن الضحية صفِّقوا وتفرقوا، ولنخلد إلى عزلة الآخر، لأن الضحية هي الجديرة بالعطف. وسننتصر في هذا المجرى، وهو مجرى تاريخي يبدأ من اعتراف الشهود بأن الضحية هي الضحية. . وسنرجىءُ التساؤل عمّن هم الشهود. سننتصر أولاً على الوعي الذي زيَّف دون أن نسأل من هو صاحب الوعي، ومن هو صانع الوعي. إنه خارجنا مرة أخرى، خارجنا تماماً، فصفقة التواطؤ اللذيذة التي عقدناها مع الذات على الذات قد فاضت عن شروط الاستلاب الكلاسيكية إلى العناية الخاصة به. نحن نربِّي استلابنا لنكسر حدود العلاقة التقليدية بين العبد والسيِّد؛ لنصوغ عبودية ذات أَصالة وحداثة، عربية، شهمة، شريفة، عذراء، يحتفل عبرها الإنسان بقدرته الفذَّة على أن يتطوَّر إلى عبد، في جهد مُضْن يمتد من حروب الاستقلال والوحدة والبناء الاشتراكي المسخ، عبر آلاف من الضحايا والشهداء والانقلابات، لينتهي عند صياغة الصورة المشتهاة: صورتنا في مرآة غرب نتوسله أن يقبل طاعتنا، بعدما حوَّلناه في وعينا وتعاملنا من خصم إلى شاهد عادل؛ أن يقبل ما نرفع إليه من براهين على تَبَرُّئنا من كلام قلناهُ

سهواً، ومن دم ضحَّينا به سهواً؛ وأن يصدق أننا الضحية، ضحية ابنه الآخر، ضحية قابيل. نحن الضحية التي تتمختر بكل آيات العجز والبترول وحسن النية الكفيلة بالثقة. نحن الضحية التي لا عمل لها غير انتظار البرابرة وانتظار الضربة. ومع ذلك ليست هذه وحدها هي الإهانة. فإن حق العدو في الضرب؛ الحق المتداول دون تسمية، المعترف به، المقبول، الطبيعي، المنتظر، المأمول ـ يتطلَّب شيئاً من سخرية الملاحظة. فكلما خدش موتُ عربيٍّ مهابة اليهود في أي مكان، وقف العالم أمام شاشة التلفزيون وأَعدَّ الفيديو ـ وهو سماجة عصرنا ـ لالتقاط المشهد القادم. والمشهد القادم هو تحرك المارد الاسرائيلي بخيلاء وصلافة لتأديب سُكَّان شرق المتوسط وجنوبه. والمشهد يتحرك بأمان، وقبول، وهتاف حاد، لأنه تحوَّل إلى حق من فرط ما تكرَّر؛ تحوَّل إلى حتمية! لم نعد شباباً صغاراً، ولكننا نتذكر ميكانيكية تحوُّل القدرة إلى حق، وتقهقر الحق العاجز إلى عدوان، وتدرُّجَ وقوعنا سبايا لمرجعية العدو، أسرى صورته ولغته، وأسرى تحوُّله إلى مثال. لا. لا يعجبنا شيء البتة: لا خاصرة الغزالة، ولا رشاقة الصياد، ولا التعليقات الدائرة على المشهد، ولا انتظار البرابرة في الساحات العامة، وعلى شرفات المنازل، وفي مجالس الوزراء. ولا يعجبنا حياء العرب في محاورة معنى الارهاب، ولا قبولهم حق أميركا، وهي دولة الارهاب الأولى، في اغتصاب مقاعد القضاة في محكمة الارهاب. يعجبنا في هذه اللحظة أن نفتح أية موسوعة لنقرأ تعريفاً للإرهاب: «إنه شكل من أشكال الحرب التخريبية التي تقوم بها دولة قوية تسعى إلى إعاقة نمو أُمة منافسة أكثر وقت ممكن، أو لإعاقة حرص الأمة على المحافظة على استقلالها... والإرهاب هو استراتيجية تهدف إلى إحداث خلل في توازن دولة أَو نظام من أجل خلق الفوضى الضرورية لخلق نظام آخر».. لا تعليق.. لأن البرابرة قادمون.

٢

في شاحنات الورد ينقلونك من أَنقاض محطة الإسمنت المؤقتة إلى سفح الخلود الذي لا زائر له غير الغربان. سفح يُطل على بحرٍ يطل على أشلاء كُدِّسَتْ في شاحنات سمّيناها ـ من أجلك ـ شاحنات الورد، وهي لم

تشحن ورداً أو بشراً من قبل. سفح يطل على آخر دنياك المليئة بالطلقات والأمكنة التي ليست لك. وليس لك هذا الجدث المحفور على عجل قبل نزول البرابرة من الفضاء. الريح هي الريح لا تنطق بغير ما تُنْطِقها، وهي الساعة لا تقول شيئاً؛ ولا هذا العشب اليابس يهمس. في وسع هذا الهواء أن ينساك للتوِّ، وفي وسع الشاطىء أن يستقبل السابحات العاريات. لا لم تأت إلى هذا المكان، ولم تطأ هذا الرمل، ولعلّك لم تمت هنا. الغربة في حدّها الأقصى تقصيك عن جلدك. من سيرمي عليك الورد بعدما أَفرغتك الشاحنات من هذا الصباح البطيء؟. ومن أنت من بين هؤلاء الشهداء الذين اختلطت أشلاؤهم وتوحدت في أكياس متشابهة؟ أي بَتْرٍ يدل عليك، وعلى مسائِلكَ الشخصي، الذي لا يقول سوى كلام عام تتقدَّمُهُ شارةُ النصر المرفوعة حتى في الظلام. كم ستكبر في الليل، وإن كانت جنازتك صغيرة كقبضة رخوة. لا يؤذن للحزن بأن يحزن، ولا يسمح للغضب بأن يغضب، ولا يُشَيِّع أَحدٌ أحداً على هذا السفح الوعر؛ فلستَ من هنا ـ أيها الغريب بين الموتى. نصف حذاء مقطوع بدقة يحمل نصف قدم محاطة بفرشاة أسنان لم تنكسر، وصورة لم تخدش، وفكرة لا تلمس ولا تعبُر. أهذا ما يشير إليك.. أهذا ما يدلُّ عليك؟ أوراق يداعبها النسيم بلا مبالاة تدفع المشاهد إلى اختصار الوداع. إلى أَين؟ إلى أين يأخذونك بعدما كان في وسع خُطاك أن تأخذ الأمَّة إلى الغفران؟. أُسمِّيك القربان حيناً، وأُسمِّيك العنقاء، وتُنْسيني أنك إنسان، لتفلت من لغتي كالشبح. أما آن لك أن تعود حقاً شبحاً لنتمكن من رواية البداية من جديد، وبلا مسرح. تعال لِنُخْلِيَ هذا السفح من شروطه الإِغريقية، فمثل سيرتك لم يُدَوَّن في نصّ سابق. عُدْ شبحاً إذا استطاع مُشَيِّعوك أن ينتشروا في أصقاع أُخرى وفي شعاب تؤدي إلى بيت. ولا تنصب دولة حيثما حللت. إرفع فكرتك وخَبِّىءْ سرَّك. الجنازة قصيرة فتقدَّم إلى مثواك المؤقت، إذ ليس لك من مثوى أَخير ولا معركة أَخيرة. لم تولد تماماً لتموت تماماً؛ ولا بارقة على هذا السفح لأيٍّ مكان أَو صرخة. عُدْ شبحاً. عُدْ شبحاً لنعود إلى نشيدٍ أوضح...

٣

يعثر حرس الشواطىء العربية على كنز ضائع : يعثرون على جثة مُقْعَدٍ أَميركي . قيل إنه قُتل برصاصة أَطلقها شاب فلسطيني في ظروف بحرية شديدة الغموض . ولأن المتهم بالقتل فلسطيني فقد تمكّن حرس الشواطىء العربية من العثور على الجثة . جثة صارت في حرب الارهاب النفسية أكبر من صورة فلسطين ومن تقاليد الشهامة العربية . جثة كفيلة بتغيير موازين العدل . جثة - طلقة قادرة علـى إصابة آخر شرعية في الخطاب الفلسطيني عن الحق والوطن . الجثة - الكنز . الجثة الهـدية إلـى منظمة العفو الـدولية . الجثة - الوصية في خطاب شيكسبيري لا يقاوم . ألأن موت مُقْعـد أميركي يفوق كل موت عربي؟ لا نحسب ذلك ونحن نتقدم بأحر عبارات التعازي إلـى عائلـة الفقيد، ونشعر بالخزي من الحادثة المثيرة للاشمئزاز دون أن نقبل مقارنتها بجريمة اختطاف وطـن ، وتدمير مجتمـع ، وارتكاب المجازر المنظمة التي اقترفتهـا دولـة ! . . ولـكننا نتساءل كيف استطاع حرس الشواطىء العـربية انتشال جُثَة من قاع البحر الأبيض المتوسط، بعـدما فشلـوا في انتشال شهدائهم ، وبعدما فشلوا في انتشال جثة الضمير العربي الـرسمي من ساحة فسيحة مليئة بآلاف الجثث العـربية الصارخة : من القاتـل؟ نتساءل ونحـن نعرف أننا مدفوعون الآن إلى خوض معركة الدفاع عن صورة الـروح . فقد خُيِّل للبعض الكثير أَننا فقدنا كُلَّ شيء ، ولم يبق لنا من سلاح سوى صورة الروح . وليس في وسع الارهاب الكبير ولا الارهاب الصغير، في التقائهما وفي افتراقهما ، أَن يخدشا هذه الصورة . فبمدى ما يجرحون أَجسادنا يقوّون روحنا . أَلهذا السبب ، إذاً ، تزج اللغة العربية الرسمية بأسلحتهـا المضادة للروح الفلسطينية في معركة دفع الفلسطيني إلى الغياب؟ إلى الغياب بطريقة لا مجد فيها ولا فجيعة؟ أَلهذا السبب يتخصص بعض المسؤولين العرب في صناعة قاتل فلسطيني ، ليقتل الفلسطيني ، وصورة الـروح الفلسطينية ، أمام نفسه وأمام العالم؟ ألهذا السبب يحتاج القمـع العـربي ، في «صراعـه» مع الارهـاب الأميركي الاسرائيلـي علينا ، شاباً فلسطينياً ليخطف طائرة بالنيابة عنه ، وليقتل بالنيابـة عنـه ،ثم يتنصـل منـه ومن «قوميتـه» المكرسـة لتدمير

القـرار الوطنـي الفلسطينـي حين يشهـد قدوم البرابرة؛ حين يرفـع له الارهـاب الـكبير إشـارة الإنـذار؟ نعـم، يتنصل من الأداة التي استُغِلَّت ظروف مأساتها وحوافزهـا المتوترة لتدمير ذاتهـا، ويتنصل من خطاب الثـأر القومي، لكي لا يبقى غير الفلسطيني قاتلاً من أجل القتل. بيد أن الساحات خالية من البرابرة الذين غيَّروا أسماءهم، وبدَّلوا لهجاتهم، إذ هم وصلوا منذ زمن بعيد، واندسوا فيما لا نراه. ونحن في قلب المشهد مدفوعون إلى غياب متميِّز؛ غياب لا يغيب؛ غياب حاضر من أجل عقدة النص، من أجل اللعبة وجمهور المسرحية. لنا دور واحد: أن يستدعي غيابنا للحضور قليلاً من أجل أي شيء يطلبه اللاعبون: من أجل مساومة على إدارة سجـن أميركية، من أجل إضفاء شرعية على انقلاب، من أجل ارتفاع سعر الخبز والبنزين، من أجـل تزويد الخطاب القومي بتقاليد بلاغـة رمادية تسمي الفلسطينيين مستسلمين لأنهم لم يستسلموا، ولأنهـم يؤمنون بجدوى الـدفاع عن خارطة يمزقهـا سواهـم كالخرقة، ولأنهـم يتمسكون بالـدفاع عن صخرة قُدَّتْ من لحمهم، وعظمهم، يرفعون عليها هوية العرب الأخيرة.

٤

ولكن، ماذا تفعل حين يختلف الإرهاب الـكبير مع الارهـاب الصغير عليك؟ كيف تصرخ حين تتكسر نصال الأعداء في خاصرتـك؟ وحين يكون جسدك هو ساحة المعركة بين قاتلك الكبير وبين قاتلك الصغير، فأين تطلق النداء؟ سؤال لا يسأل لأنـك مغـدور، مقهـور، أيوب. وعليك أن تغلـق المساحة بين الصرخة والجسد، عليك أن تصغي إلى صمتك وحدك، فمـن هذه الفسحة الصغيرة ستمر طائرات البرابرة، وقد تتَّهم، وستتهَّم إذا صرخت من الوجع ومن الغدر بأنك شريك في المؤامرة على قاتلك الصغير. أَيِّدْهُ، عانقْهُ، ساعدْهُ على إيلاج خنجره في كبدك ليتفرغ للدفاع عن نفسه أمام قاتلك الـكبير، فتلك واجبات الأخُوَّة. لا تُسَمِّ من اغتالك فأصابت أشلاؤك بعض المارة الأجانب كي لا تسمع أميركا هذا السرّ العميق. لا تقل شيئاً. ساعـد أَخاك على اغتيالك. أو قل إنك قاتلُ نفسك. لم يقتلك أحد. لم يقتل أحدٌ أحداً. قل إنه أَجرى لك عملية تصحيحية في الكبد فمت من فرط الاستسلام.

قل مرة أُخرى إنك قاتل نفسك . فأنت ثمن كل شيء . أنت ثمن لا شيء . قل إنـك قاتـل نفسك لينجوَ بئر بترول ، وصفقة سلاح ، أو جملـة ثورية ، من التضخم . ولا حصة لك فيما يجري تقاسمه فيك وفي جثتك ، لأنـك ضحيةُ الضحية . لم يقتلك أَحد. أنت الذي فعل . أنت الذي قتل . قُلْ ولا تندم ، فبعد قليل سيتعانق القاتلان عليك ، وأنت الثمن الذي لا يبحث عن نتيجة . وعليك الآن أن تقف ، بكامل جروحك ، وتعتذر للخنجر الذي أَصاب جسدك وأصاب صورة روحك ، لأنه قد يفضح القاتل ، قد يفضحه قليلاً . . هل وصل البرابرة؟ هل وصل البرابرة؟ لقد كانوا نوعاً من الحل . . .

الفهرس



في وصف حالتنا

. . . لقد آثرنا نشر هذه المضمومة المختارة من المقالات، لأن الواقع يؤكدها بفضيحته المتكررة يوماً بعد يوم؛ وبإصراره العربي تحديداً، على أن يكون ـ في مستقبله المنظور ـ صورة لهذه الكتابة المنجزة عن ماضيه، كأنها تتوارثُ الخيبةُ الخيبةَ، والحطامُ الحطامَ، والشهيدُ الشهيدَ، والروح التي لا تنكسر ـ في العمق الفلسطيني ـ أختَها التي لا تنكسر؛

إنها كتابةٌ تتأكّدُ بثواب المستقبل الأبعد على ألَمِها.

إن ما يقال، هنا، هو الأنين الواحد في هبوب الفجيعةِ المتعدِّدة.

دار الكلمة للنشر تلفون 803740 ـ ص ـ ب 5288 / 13 ـ بيروت لبنان